رواية نوريس

(الفشكول)

رواية نوريس

(الفشكول)

ضحى عبدالرؤوف المُل

المؤسسة الحديثة للكتاب

لبنان

شركة المؤسسة الحديثة للكتاب

©جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى 2023

يُحظّر نسخ هذا العمل او طبعه او تسجيله او تصويره او ترجمته او اقتباسه او تعديله او تحويره او تكييفه، بجميع الوسائل المتوافرة بما فيها التصوير الفوتوغرافي او العادي او الالكتروني او على الاشرطة او الكمبيوتر او الاسطوانات او الاقراص مهما كان نوعها او بأية طريقة اخرى، او استعمال المنسوخ او المصور منه دون إذن خطي مسبق من الناشر.

الغلاف بريشة للفنان العراقي ستار كاووش

الفرع الرئيسي: طرابلس – بناية البولفار – مقابل قصر العدل **Telefax: 961 06 424233**

Cell: 961 03 239338

فرع ثاني: القبة – مقابل كلية الآداب **Tel: 06 385469**

فرع ثالث: بيروت – بدارو – شارع بدارو مقابل الـ **Buik Telefax: 961 01 422303**

Cell: 961 70 975408- 96170705263

بريد الكتروني: alhadithabooks@hotmail.com

موقع الكتروني: www.alhadithabooks.com

هذه الرواية عمل خيالي. والاسماء والشخصيات والأماكن والوقائع الواردة فيها من مخيلة الكاتبة. أو جرى استخدامها في النص بشكل خيالي. وأي تشابه بين هذه الأسماء وأسماء أشخاص حقيقيين أحياء كانوا أو أمواتا. هو محض مصادفة بحتة. وكذلك أمر الأماكن في المدن والقرى والمواقع والأحداث...

المقدمة

كنت اظن اني أعرف المرأة جيدا ، وأعرف نقاط ضعفها وقوتها وأماكنها الصعبة واللينة، وأعرف سرها الجنسي الصغير ، لكنها خذلتني وتركتني كالمخبول بين نقطتين عميقتين لا يمكن الدخول والخروج منهما من دون التفكير بالعودة اليهما.. وما بين نبيلة وانابيلا اصبحت كالفشكول او الاحرى كالمخبول ...

نورس الفشكول

الفصل الأول

كنت أحسب أن أنابيلا تنتظرني أمام مرآة كسرتها واعادت لصقها عشوائيا كعادتها وهي تتشمم أصابعها وقد التصق عليها الصمغ الصنوبري ورائحته التي تنبعث من لوحة تثير الرعب فعلا. لكنها تجعلك تفكر ألف مرة وانت تتاملها بحيث أن من يتساءل عن مكنونها لا بد أن يفهم أن من قام بصنعها كان فاقداً للوعي اثناء تكسير الزجاج، أو أنه يستمتع بتكسيره بآلات حادة. لوحة مجنونة ممهورة بإمضاء الفنانة أنابي.

لا يمكن لأحد أن يتخيل كيف تولد لوحة من لحظات غضب تكسيرية لفنانة متقلبة الأهواء. فهي عندما تغضب تبدأ بنوبة من التكسير تنتهي بهدوء ما بعد عاصفة حيث ترى كل شيء مدمرا ويحتاج لإعادة بناء من جديد. إذ يتطاير معها كل ما حولها حيث شظايا الزجاج في كل مكان والتماعات الضوء مع العتمة تتمايل من انعكاسات قطع المرايا المتكسرة ، وكأنها كالنجوم في السماء عندها تتألق في غمرة السكون الليلي المتقطع بتأوهاتها التي تشتد وتتراخى تبعا لمزاجها الشبقي، والآخر الفني وفق نغمات اتلذذ بها، ولا يراودني أدنى شك أنها وصلت لذروة غضبها الصاعق وعروق دمها تنفر من جسدها المتشنج وتستولي عليها نوبة شرسة، وهي عارية تماما وعضلاتها تنبض كقلبها الذي يعزف على اوتار دم ترتسم بلون ازرق شفاف ما بين زندها وفخذها، وحتى خدودها ومؤخرتها، والأهم من كل ذلك رقبتها، كأنها توازن بين الأمام والخلف بتوهج الغضب الذي يصيبها بجنون أعشقه، فشراييها تنتفخ ويتورد صدرها الذي يثور ويصبح عارما وشهياً مرمريا، تشتهيه العين كما أشتهيه أنا بطعم جبنة جدتي

مكارم، وهو يرتفع وينخفض مع شهيقها وزفيرها، وهي تعانق وتحتضن وتمتطي مع صوت أشبه بصوت الريح القوية قبل أن يتساقط المطر، وكأني سحابة تغشاها لتمطر بعدها بماء مالح وحلو كعصير العنب المعتق في جرة من فخار ملفوفة بورق أكياس الأسمنت في الصندوق الخشبي لجدتي مكارم، فحبات العرق على صدرها لها طعم لذعة المطر في شهر ايلول، أو طعم الندى على التين في شهر آب إن جاء باردا صباحا مع الضباب الذي يخفي قرية السن العكارية الشمالية في لبنان والقابعة بعيداً عن العالم. قرية ولدت فيها وهي كأمي التي مازالت مخفية حتى الآن . وان حاولت البحث عنها جغرافيا لا أجدها حتى بين الغابات التي كنت أقطع منها الحطب لمشحرة اتقن طمر الحطب فيها. ليصبح فحما نخبويا لا يحصل عليه الا ابناء القرى العكارية الذين يعشقون فحمي السنديانى الشديد الإشتعال الذي من يستخدمه مرة لا بد أن يتعلق به.

تستغرق أنابيلا في طقوس صنع لوحتها أياما أصبح خلالها مثل طباخ الملكة أليزابيت لا أغادرها من السرير الى المطبخ فالجلوس قرب كلبها.

سألتني مرة بجدية تامة :

"هل أنت منزعج من طقوسي في الحب؟".

قلت:

كيف أنزعج من امرأة أشعر أنني لوحتها؟

عشت سنوات لا أحسبها من عمري الذي ضاق صدري منه الآن مع هذه الآلآم . فمع أنابيلا المفعمة بالنشاط والشديدة الإفتتان بنفسها عندما تتعرى أمام المرآة قبل أن تبدأ بتحطيمها بغية الحصول على حطامها. كنت أحيا وكانت تذهلني فيستحيل علي أن أختفي من أمامها، أو أن أتحاشى تحديقها بي بعينين قويتين حميمتين ، فأشعر بأني إنسان أنتمي لها تائه بحنان امرأة شرسة لا استطيع مقاومتها رغم احساسي بقوتها إلا أنها تفتنني ولا أعرف مصدر فتنتي بها صدرها أم مؤخرتها أم بطنها. لم أستطع خيانتها ولا مرة قبل معرفتي بكاوتيكو. لكن بعد ذلك كان لدي الإنطباع بأنها ستهجرني يوما ما بعد أن بدأت تنعزل في منزلها الثاني في ريف ايطالي لم أشعر فيه اني في غربة عن عكار شمالي لبنان عندما أهجرها أنا أيضاً ، لإنغلق على نفسي وأبقى فيه أياما مستمتعاً بأشعة الشمس بين الحجارة القديمة التي تعيدني الى قرية السن التي لم العنها في حياتي كما كنت العن مكارم التي تثير جنوني تلك الحمقاء غير المبالية بي حتى وأنا معها فكيف بعد أن غادرتها، لشدة ما أغاظتني في حياتي وهي التي كانت تعاملني كخادم لها.

– يلله على المشحرة سنبدأ بمشحرة جديدة

– أبغض المشاحر والفحم والحطب وأبغض هذا البيت وهذه القرية

– منحوس هس ولا كلمة ، لم استأذنك يا مشحّر

– لست متحمسا لمشحرة اليوم ولا غدا ولا بعد غد ولا ولا...

– هل ترفض البدء بالمشحرة يا منحوس؟

كنت أصمت وأرضخ للبدء بالمشحرة فنظرتها القاسية الفجة كحبة الإسفرجل، وأنا من شدة بلاهتي كنت أدير لها ظهري هربا من نظرتها. فأظن أني بذلك كنت أغيظها وقلبي عامر بالتمرد عليها كي لا تنظر الي بهذه النظرة الكريهة. هذه المرأة لا يمكنك النظر إليها من دون أن تشعر أنها دهرية خرجت من كهف للآثار لم يقترب منه أحد.

الطبيعة في أي مكان لها سحرها الذي يجعلني أعشقها من دون وعي بالمكان وغرابته، وان اختلف البشر أو تقلبوا بين خبث وطيبة. طبيعة تستقبل غضبي وأنا أجلس على حافة الوادي لأرمي بها بالحجارة من حولي حتى المغيب. ربما أنا متقلب الأهواء، وربما الإنتماء بالنسبة لي هو الطبيعة التي أسلمها كآبتي عندما أستوحش من وحدتي التي تسكنني رغم ضجيج حياتي. أنا الوحيد في هذه الحياة الذي جعل من ظهر ناريش بيتا لي سائحاً متسكعا معه عندما يستبد بي الخوف من مكارم ، فلا أستطيع حتى النهيق أمامها كما يفعل ناريش أمامي عندما تبدأ نوبة نهيقه. يشيح ببصره عني عندما يكون غاضبا كما أهرب أنا من تحديقها بي تلك الشمطاء المزهوة بنفسها غير المبالية بي والعنيدة جدا فيما يخص المشاحر عندما تريد البدء بها للحصول على الفحم.

لم أصادف امرأة مثلها رغم أني ألفيتها قبيحة جدا ولم تكن على حظ من صوت جميل. فمن المستحيل أن لا تنزعج من خشونة صوتها. في دمي تلك الشمطاء التي تشبه ميساء المشعوذة في المسلسل الكرتوني السندباد الذي كنت أشاهده احيانا في دكان البير . ما زال صوتها في رأسي كصوت مكارم وجملتها الشهيرة" يا خادم المصباح أنا اليوم بحاجة إليك سوف تأتي معي لنقتل سندباد ورفاقه". السندباد البحري مع عصفورته ياسمين وأنا مع حماري ناريش. كنا نستمتع معا عند بدء حلقة السندباد في الساعة الخامسة والنصف وعندما أعود ليلا الى قرية السن أجد مكارم في شخير مستعر وكأنها ميساء الشريرة قد نامت مكانها. كنت أحلم أني الفتى ريمي ويوما ما ربما أجد أمي وأبي وقد أخذتني هذه العجوز منهما. لكن مؤكد أنا صبي ولست فتاة كما هي الحال في مسلسل دروب الذي اشاهده الآن على اليوتيوب . ومن المؤكد لست كعدنان ولينا والحروب لم تقترب من قرية السن المنفية عن عالم تركته وما زلت يافعا. إلا أن عدنان كان يعيش مع جده وليس جدته. لكني كنت أتمنى أن أكون عبسيا.

انابيلا بشعرها البني الطويل الذي يتمايل مع حركتها نزولا صعودا يمينا وشمالا وترتج كالخليوي بين يدي عندما ترتفع وتهبط ومن ثم تستكين، فتلامس أرنبة أنفها البارد أنفي، فأرتجف وأنتعش مجدداً للحظات نشوة لا يمكن وصفها رغم أنها تشبه نشوة التلاشي عند أكل طبق الشكشوكة. وإن كانت في مزاج تكسيري تتجدد حرارتها حين تضع شفاهها الباردة المبللة على عنقي قبل أن تهب مسرعة وتبدأ بلملمة الزجاج المحطم، تنتفض وتهتز أردافها كدجاجة وديعة

بعد ثورة لبوة غلبها شعور التزاوج والأشتياق لأسد قوي البنية، وهي لا تحول عينها عني كأنها تراني أول مرة وتشتهيني كضبعة تثيرها رائحة الفريسة، وأنا هامد أراقبها كتمثال من رخام على الأرض الممدودة بقطع الزجاج أثناء جلسة طويلة لإعادة ترميم لوحة من الزجاج المتكسر، والمختلفة فتصبح تحفة فنية مؤلفة من مرايا متكسرة بأحجام متنوعة، والكثير من القطع الزجاجية الصغيرة جدا التي تلمها من الأرض، وهي تتمتم بصوت يجعلني أتكدر رغم سعادتي بغضبها بعد أن تتناثر شظايا الزجاج في كل مكان حتى السرير والوسادات بعضها كالغبار، وبعضها يصبح بمختلف الأشكال حتى الناعم منها كالبرغل الخشن المجروش، ولا تهدأ الا بعد نوبة أخرى من تكسير الزجاج بمختلف اشكاله والوانه بأكواب صحون فناجين مزهريات كؤوس كريستال. في النهاية وباختصار بعد الانفجار العصبي المهول وما يتبعه من طقوس فنية لزجاج لا يتبقى منه الا ما يشبه الكشك المفروك على سطح جدتي مكارم التي لا ترفع رأسها عن صدرها وهي تفركه تحت حرارة الشمس . الكشك مع اللحم المفروم أو الخبز والثوم والزيت الأصلي ترويقتي التي ما زلت أعشقها حتى الآن .

– ابدأ بتنظيف الأرض ، أخذت القطع التي أريدها سأشرب كأسا من الغرينادين ريثما تنتهي.

– متأكدة أنه ما من نوبة أخرى، هل أنتظر قليلا؟.

– لماذا تعض على شفتك كالنساء اللواتي يغرين الرجال.

– لم أنتبه ، ربما هي عادة قديمة منذ صغري.

– عد وأجلس سأكمل قليلا ، لكن أحضر لي كأسا من الغرينادين . مع قطعة حلوى

–إذا لم أكن مخطئاً سأستعد لجولة أخرى. صحيح؟

لا أرغب بالجواب يا نوريس حبيبي مجنوني الذي أعشقه

ثم تتحسسني مجددا وتعض على شعري الطويل . جدتي مكارم تعض على طرف منديلها بشدة أثناء طحن الفحم بعد كل مشحرة . لا تتعب ولا تنام ولهاثها لا يتوقف الى أن تنهي تجهيز الفحم لتوزيعه على الدكاكين، ومن ثم تتكىء على وسائدها المحشوة بالتبن وتحدق بي بعينين مستديرتين جامدتين مخيفتين ولا تتحرك إلا بعد برهة قصيرة عندما ترفع منديلها عن رأسها لتلوّح به لأراه ، فأشعر أن الدنيا تلوح بي وتؤرجحني وكم كان غيظي حينها كالجمر الحارق. تحرص خلالها على مراقبتي وهي تعد أكياس الفحم التي أنقلها الى بيت الحجر قرب الحمام الذي يبعد مترا ونصف المتر تقريبا عن البيت صارخة بي ...

– تحرك يا أهبل يا مشحَر يا معفَر ، ابدأ بتوزيع أكياس الفحم على الدكاكين. أنطلق الآن لا ترجع الى البيت قبل أن تسلمهم لأصحاب الدكاكين.

– يا مكارم الأكياس أكتر من خمسين كيسا لن استطيع توزيعهم اليوم كلهم .

– يا مشحّر يا معفّر يا مفحّم يا فحام أنت ما بتفهم أبدا. ابدأ يعني ابدأ ولا يهمني متى تنتهي بتوزيعهم . رش زعتر وزيت على خبزة وخذها معك.

– أشتهي الكشك بدل الزعتر.

– تشتهي السم يا ولد الكشك للشتاء . رش زعتر

وتبقى في سريرها الخشبي ممدة كحجارة بيت الرب في منجز عكار شمال لبنان. والهالة السوداء حول عينيها تمنعني من تحديد الى من تنظر . لي أم لناريش الذي يغضبها لأنه يأكل كثيراً من التبن عندما أبقى معه في ركني السري .أما عزوز كلبي الذي يلهث كلهاثها ويعوي كلما مرت من قربه. الا أنه لا يتأفف ولا يشتكي ولا يسب ولا يشتم مثلها ، لكنها تركله بقدمها..

– حمير وكلاب وصبي أهبل ..عجقة على الفاضي بهالبيت

– يا مكارم ، عزوز يحرسنا كل الليل.

– اي لأنه عندنا كنز هارون كلهم كم كيس فحم. وكم حطبة . فيني طعميه وطعميك وطعمي الحمار، يا حمار؟

– بياكل ما يتبقى وأنا كل ما نزلت على ضيعة البيرة أطعمه عظام من ملحمة دياب.

فتعيد ركله مرة أخرى فيركض نحوي ويعانقني كما لم يعانقني أحد طيلة حياتي. لتعاود الصراخ من جديد انطلق يا أهبل واترك هذا الكلب الذي سيعضك يوما ما وتصاب بداء الكلب ما ناقصني الا (نكلب) عضك وتعضني.

صراخ جدتي مكارم أحيانا أسوأ من نهيق ناريش ليلا والسكون العميق يعم قرية السن ببيوتها الخرقاء وطريقها الوعر رغم جمال البراري والطبيعة هناك. لكني لست ريمي ولا هايدي ولا حتى السندباد ولا عدنان أو عبسيا، شخوص كرتونية ما زلت أشاهدها على اليوتيوب وأنا رجل أشيب ما زال بحاجة الى حنان امرأة يعشقها وحبي لها هو اللغز الأكبر في حياتي. لكن ما تبقى من علاقات لي مع الأخريات هو أمر لا مناص منه عندما تغويك امرأة غاوية لا مفر منها مثل كاوتيكو السوداء اللؤلؤية الذي تأمرني بالأستحمام منذ دخولي بيتها.

كنت أشعر بالضيق عندما أركب مع البير في سيارة عمته التي تقف قرب البيت وفي السن ما من سيارة كانت لتستطيع الإقتراب من البيوت، فالطريق الرملي ضيق والحجارة الناتئة مستعدة لتفجير دواليب اي سيارة تمر . لكني كنت استمتع على طريق قريتي السن؛ لأن الدروب خالية خاصة عند الظهيرة، فالكل في قيلولة الغداء وما من سيارة على الطريق الترابي المتعرج والمرصوف بالحجارة المتقطعة بين الحين والآخر.

مع أنابيلا كنت أعيش للحظات ذكرياتي مع مكارم الثقيلة الظل التي لا أطيقها، ولكن بوجه آخر أتمتع باحترام الآخرين لي وبمحبة أنابيلا المتمسكة بي وقد علمتني آداب الحياة هنا كما تقول رغم أن آداب الحياة في قرية السن لم تقيدني

كما أتقيد هنا عند اصابتها بنوبة الغضب التكسيرية فتصبح أشبه بحوت أبيض هائج يؤجج رغباتي مدفوعاً بشهوة تبقى مشتعلة حتى اشعار آخر .

– هل تنوي الخروج الليلة بعد أن أنهي لوحتي؟

– لست أدري، ربما. ولكن هذه الهجمة الأولى من طقوسك حبيبتي لا أظنها تنتهي هذه الليلة.

– لئيم أنت حبيبي تثير شهيتي دائما.

كنت اتساءل ماذا ينقصني لأنسى جدتي العجوز مكارم، ولماذا يشق علي نسيانها وأنا مع أنابيلا التي تصمت وتعض على شفتها السفلى وتنظر الى صدري نظرة جائع لرغيف خبز ينضج على الصاج أمامه، في صباح أتمتع فيه بعطرها البنفسجي، فتثير جنوني وشغفي بها فأتساءل في نفسي هل كنت محظوظا بالحياة عندما التقيتها؟ . إلا أنني لا استطيع الإقتراب منها ما لم تغضب إن لم تجد قطعة زجاج تتناسب مع ما تلصقه على اللوحة. عندها استمتع مرة أخرى بنوبة غضب ثانية تبقيني حتى غد مع يوم جديد أبدأ فيه تنظيف ما تبقى من الزجاج، إن أنهت لوحتها. وكم كنت أتمنى أن لا تنهي اللوحة قبل أيام ثلاثة أخرج منها منهك القوى كديك مع دجاجات تسع. لا اقوى حتى على رفع راية الإستسلام. لكني في نهاية الأمر أكون البطل المثير الذي تفتن به نجمات السينمات هنا في ايطاليا. والألذ من كل ذلك صوتها الذي كموسيقى العصافير الصباحية في قرية السن العكارية. مع لوحة لا يقل سعرها عن عشرة آلاف دولار نسبتي منها عشرون

من المئة عند تسليمها لمتحف أو لزبون اشتراها اونلاين من أنابيلا. للمال قداسة لا يمكن فهمها رغم أنه لم يجعلني من المهووسين به. فلم أنحرف عن طريقي يوما ما بسببه رغم أني حصلت عليه كما ينبغي لرجل مثلي يشم رائحة العملات الأثرية من بعد ، وعلى الرغم من أني حصلت عليه منذ صغري لكن لأشتري حبل سكاكر الهلال بالسمسم على غير وعي مني بالقدر الذي ما من هروب منه.

لا أريد معرفة المزيد عن النساء اللواتي لا افهم أمور رغباتهن جيداً . يكفي أن استسلم لأنابيلا عند نوبة غضبها. فقد آليت على نفسي أن لا أخسرها منذ أن أصبحنا أصدقاء بعد وصولي الى صقلية ، فتجاوبت روحي معها عند أول لمسة تعاطف بيننا . اذا تركني دون ستيفانو لأيام معها في قبو منزله الحجري الملىء بزجاجات شراب مصفوفة كالحطب في مشحرة صغيرة، أو كالفحم في بيت مكارم الحجري المثقل برائحة الفحم أو المشاحر عند اشتعالها. غالبا ما كنت أجلس على السطح لأمسك بالضباب وأشعر حينها أني وحدي أعيش على القمر.

انابيلا بمثابة لؤلؤة بيضاء بين لآلىء مغرية، وهي تلك التي تشع ضوءا ينير حياتي وطرقها العشوائية غير المعبدة كأرض قرية السن المهملة من الجميع.

امرأة أريد أن أمضي معها عمري ولم اسألها يوما أن نتزوج لعلمي أنها لا تحب قيود الزواج، كما أنني لم اشعر بحاجتي لذلك. وما من خوف لطلاق بغيض أو لزواج تمسكني به من يد تؤلمني. لكني كنت استمتع بحفلات الزواج في قرية السن ، وبالمآتم فالأكل حينها يصبح وفيراً واستطيع الإحتفاظ بقسم منه

يومين أو ثلاثة إن كان المأتم او العرس في الشتاء. أما في ايطاليا فتصبح كؤوس النبيذ والويسكي على انواعها كمطر شهر تشرين في عكار. وشتان ما بين الطعام في اعراس قرية السن والشراب المعتق في صقلية.

– هذه اللوحة اسمها مومنتو ولدت في لحظات لا يمكن نسيانها .

– مومنتو ؟

– نعم مومنتو، هي لأمرأة من جزيرة صقلية عليك تسليمها لها هناك.

–هل تستغني عني لأيام؟

– وهل ستبقى جالسا قربي مثل كلبي ؟

– وماذا يعني أنا مستعد لذلك، خادمك المطيع.

يوم أخبرتني أنابيلا أن هذه اللوحة التي اطلقت عليها اسم مومنتو "أشترتها إمرأة ، غلبني شعوري بأن المشتري هو رجل يخفي شخصيته خلف ستار امرأة. أذ يصعب على المرأة أن تعجب بامرأة اخرى تسكن في لوحة مثيرة لهذه الدرجة. فاكتشفت لاحقاً انها فعلا امرأة واسمها كاوتيكو، وما بين المرأة العارية المرصعة بالزجاج الملون في لوحة مومنتو وكاوتيكو باللون الأسود اللؤلؤي الشغوف بأحمر بركاني او أحمر جمر الفحم المذهل، رحلة خرقاء أمضيتها بقلق ينهشني، ويتركني أياما غير مطمئن من أن تكتشف أنابيلا أني مع اللؤلؤة السوداء التي تنسيني دائما من أكون، فأبقى أياما فيها معها قبل أن تطردني هي

الأخرى . حقيقة أشعر بالفرح يغمرني عندما التقيها بحفاوة تجعلني كمن يزيح ألف صخرة عن صدره. يليق بلؤلؤتي السوداء اللون والبرتقالي وهو لون يهزني من أعماقي ويجعلني أشعر بالسعادة التي لطالما افتقدتها مع جدتي.

في تلك الليلة حين أخبرتني بدأت التجهيز؛ لأنطلق نحو جزيرة صقلية التي زرتها أول مرة بعد عدة محاولات باءت بالفشل للعودة إلى فلينو وغاباتها التي تذكرني بقريتي السن في عكار. لكن صقلية تشبه بشوارعها وبيوتها والحياة فيها بعض القرى في عكار . تأتلفها سريعا رغم اللغة الايطالية التي عانيت منها ما عانيت لأتعلمها. وكنت أختنق من الطعام أحيانا والمعكرونه تحديداً. رغم أن طعمها يشبه معكرون مكارم . افتقدت أقراص الكبة العكارية المحشوة باللحم والصنوبر واللوز والمنكهة بالشواء على الفحم مع السمن البلدي. ثمة شيء مؤثر في حياتي مع مكارم التي تقتلك بصمتها وتكشيرها ونظرتها الحادة. المهم المعكرون هذا علمتني طبخه مكارم وهو وضع القليل من الطحين والملح مع الماء والعجين، ومن ثم تشكيله لقطع صغير في صينية من القش لأسلقه وأصفيه وأضعه في لبن الغنم مع الكثير من الثوم والنعنع الأخضر المفروم. وأن أردت الطعم الأفضل عليك بتقلية السمن البلدي حتى تسمع صوته يطش وتتصاعد رائحة النكهة حتى النخاع.

عندما أتيت صقلية هاربا من لبنان مع ألبيرتينو، أو البير صديق الطفولة أحسست بالولادة الحقيقية غريباً عن كل شيء إلا صديق الطفولة أو المراهقة حقيقة لا يشبه عبسيا، طبعا ذلك الفتى الأرعن الكركوب كما تقول جدتي مكارم

عني. ولم أشعر يوما بالمذلة من ذلك؛ لأني ما زلت أحب أن اكون كركوبة أو فشكول ، كما اطلقت علي هذا الاسم كاوتيكو .

كل شيء في ايطاليا ينتهي بنو. إلا أنني حينها امتلكت هوية جديدة واسما اخترته بنفسي لأنه الأسم الذي أحسست أنه مازال يلتصق بي من قريتي العكارية نوريس لوتشيو. مثل هذا الأسم من شأنه أن يجعلني شخصاً آخر غير متقلب الأحاسيس وليس حاقداً على مكارم التي أود تحطيمها ثم نحتها، ثم تحطيمها، ثم نحتها حتى يفنى الكون؛ لأنني أنزعج إذا خطرت ببالي فجأة وهي تفعل ذلك دائما كلما نظرت الى احداهن أو كلما مر عفريتها الذي يكتفي بالتحديق بي كل مرة. فأشعر بالامتعاض ولم أفهم ما دلالة عفريتها الذي يأتيني كلما شعر بالسرور مع امرأة.

ميساء الشمطاء ما زلت ابحث عنها في مواقع الإنترنت وصوت المدبلجة ناديا حمدي الذي يصيبني بالقشعريرة، كأنه صوت مكارم ببحته الخشنة، آلة موسيقية جارحة هو صوت مكارم. وأكثر خشونة من صوت ناديا حمدي الذي يشعرك بالخوف عند سماعه. صوت ميساء يجعلني في قمقم بيت مكارم الحجري.

كنت قد عرفت أني مغادر لأنابيلا عندما كانت تحاول إنهاء لوحتها بشتى الطرق. وأن المرأة السوداء المرسومة بالزجاج الملطخ باللون الأحمر هي سر تخفيه عني هذه المهتزة الأرداف التي تعشق البيض المقلي مع الباستا وشرائح الفلفل الأحمر. لم أحسن الهروب من هذه المهمة التي تبدو لي في كل مرة كأنها مفتعلة منهن، وكأنهن يستمتعن بذلك. وربما أنا كالبضاعة التي لا ترد ولا تستبدل

كماركة مسجلة باسم صانعها. كأنما من دون إرادة مني أبقى معهن واسترعي انتباههن على نحو لا يوصف. وبغرابة بعيدة عن طبيعتي الآتية من عالم مختلف. فهل نمضي نحو الطفولة بعد الستين؟ أم أني احتضر فعلا ولا استطيع العيش من دون أنابيلا.

أحرزت نجاحا كبيراً معهن لسنوات في الأستلام والتسليم وشحن اللوحات والسفر بها الى مختلف المناطق الايطالية؛ ولكن عبر سيارة وليس على ظهر ناريش من دون تعرج أو وقوف مستمر ليستريح ناريش. لم أفكر يوما أن أحدد إن كنت محظوظا بذلك أو العكس. كانت اللوحات تتضاعف وتتكاثر في قبو كاوتيكو كلما نزلت إليه لأضع لوحة أخرى وأقوم بالتوضيب اللازم للوحات أخرى؛ ولأنام في حفاوة ملكية على سرير حديدي مع الثلاثينية كاوتيكو صغيرة الحجم، والجذابة بوجه مشرق وبجيدها المنحوت المزين بتاتو النجوم. ثابتة وواثقة بنفسها عندما تضمني بين ذراعيها القويتين أكاد اختنق من الإحساس بأن أنابيلا تراني كما يراني عفريت جدتي مكارم.

– حاول أن تنسى السفر لتوزيع اللوحات وأبقي على نهدي مستريحاً الليلة.

– جئت لتسليم اللوحة لك. وتريدين مني تسليم لوحات أخرى.

– لك نسبتك، هذا عمل حبيبي

– أكنت على معرفة بي من قبل؟

– أكيد، أنا وأنابيلا نتعامل دائما بسوق اللوحات. ألم تخبرك ؟

– الحقيقة، لا اسأل أنابيلا عن شيء تأمرني به. ولك مثلها سأسلم لك اللوحات ولي نسبتي.

ثمة شيء لا يمكن وصفه عندما ينتابني الإحساس العكاري الذي يطل من طبيعة جزيرة صقلية وهذه المرأة السوداء التي أرنو اليها بنوع من الحنان لأم تعانقني، وهي تبدو بذلك رائعه عندما أهرب من مضاجعتها مبهورة من ضعف بي تظنه أصابني جراء السفر؛ لكنه في الحقيقة ملامحها السوداء الرقيقة وصدرها الذي يبعث الشعور بعنفوان يصيبني بسكتة شعورية لا يقوم لي قائم فيها؛ لكن أنسى كل ذلك عندما أشرب كأس الواين الذي تخلطه بما يشعرني بالنسيان واللذة: مين يهرب من المكتوب، حبيت أنا حبيت، كما يقول فريد الأطرش، أو كما كانت تغني برناديت عمة ألبير.

رغم وجودي في ايطاليا لم استطع نسيان الأغاني العربية وجمالها: جوزي وانا حرة بيه، أشويه واقليه واحطه على الرف واغسله واكويه. ولكن للراب طعمه المختلف مع المغني الإيطالي فابري فيبرا fabri fibra وأنا مسافر لتسليم لوحات أنابيلا.. هناك أشياء لم يخبرك بها أحد. لقد ولدت ومت هنا، ولدت في أرض انصاف الحقائق، أين تهرب الى ايطاليا؟. معه حق فابري فيبرا فكلمات اغنيته تشعرني أني عكاري ايطالي، أرض انصاف الحقائق. اليست عكار التي ولدت عليها تدفن الكثير من الحقائق في باطنها ؟

لم اتوقع أن تكون امرأة سوداء كاللؤلؤ الأسود عندما وقفت أمامها مذهولا. إذ ضربتني الدهشة بالعربي المشربحي علقت السطل، بل صفعتني الدهشة، ولدقائق

لم استطع الكلام . كأنها الحجر الذي سرقته من مقام الرب في منجز عكار وأخفيته قرب مقام السائح في بلدة دنكة القصير، وأنت تسلك الطريق للوصول الى نبع جعلوك أو مقام الرب. أنف بارز قليلا مع خطوط دقيقة، والفم كأنه فم نفرتيتي، ولكن بلون أسود كحجارة بيت الرب السوداء المنقوشة بشتى الرسومات. بل هي ذاك العقد الفريد الأسود الذي كان يقف على عامود قريب من مغارة بيت الرب.

شعرت بالكآبة لأني فشلت في سرقة هذا الحجر الذي تركته في شاحنة صغيرة عند مفرق قرية عمار البيكات قبل أن يصبح اسمي نوريس. وأنا أتأسف على نقودي المعدنية التي تركتها في بيت مكارم مخفية؛ نقودي الأثرية ولم يسعفني الوقت آنذاك لإحضارها معي؛ لكني أحضرت القسم الآخر الذي كنت أخفيه في مقام الرب في منجز خلف شجرة الجوز قرب النبع. هل تتقلب الحجارة المدفونة في مقام الرب كما يتقلب الأموات في قبورهم؟. تعبير سيء، لماذا يخيل إلي أن الأموات في مقام الرب تلك المنطقة الساكنة بتاريخ البشر المنسيين يتقلبون؟ اتخيل من كان يعيش في مقام الرب، كان ملكاً فالمداخل الحجرية فيه تتسع لأشخاص أطوالهم أمتارا ، وهذا يشعرني بالخشوع عندما كنت أتأمل ما هو منحوت على تلك الحجارة .

أطلت أنابيلا يومها من باب المطبخ وفي يدها كوب كبير من الكابتشينو، مبتسمة مبقية صدرها العاري يغازلني وبطنها الذي يهتز كغمامة بيضاء يذكرني بالغيوم التي كنت انتظرها لتمر سريعاً وتستبدلها العتمة بلون أسود؛ لأخفي

البيض تحت التراب قرب شجرة الجوز خلف بيت جدتي مكارم في قرية السن عكار شمال لبنان، كي ابيعهم واشتري السكاكر والزبيب من عند البير في بلدة القبيات. معلنة أنني يجب أن اسافر لتسليم كاوتيكو لوحة أخرى. في الحقيقة أدركت أنها تريد تسليمها شيئا فريدا تخفيه في اللوحة، ولم أحاول اكتشافه لا يهمني ذلك؛ لكن أن تكون بين امرأتين احداهن بيضاء كالغمام، والأخرى سوداء كحجر أثري نفيس يتقاتل عليه كل من يراه، لهي نعمة كبرى لا يدركها إلا رجل مثلي. وما من عشق عابر في الحياة. فلا تأسف على امرأة عادية قابلتها في الحياة؛ لأن الأسف يليق أكثر بامرأة هي أشبه بحجر أثري يتقاتل عليه رجال العصابات كما تقاتلنا أنا وألبير عندما فشلت بسرقة الحجر الأثري الذي تركته في قرية عمار البيكات العكارية. ولكن لم يسعفني الحظ بامرأة تنجب لي ولداً رغم عدم اهتمامي بذلك بعد معاشرتي لأنابيلا وكاوتيكو. ولم يحدث تلقائيا، ومع ذلك أحببت تفاصيل حياتي في ايطاليا كما احببتها مع مكارم التي كانت تتمتم وتغني ليلا وهي تظن أني لن أسمعها، ولن أتقاسم معها ما كانت تخفيه في صندوقها المخفي تحت فراشها.

ألبير وحده لم يحب النساء أبدا. كنت أجده دائما على كرسي صغير من القش، وكأس الشاي بالحامض والنعناع أمامه. كنا نتبادل ما نجده في البرية من عملات اثرية نستبدلها مع بعضنا. ولم يكن يعترض على كمية الفحم وان زادت عن حاجة دكانه. فالليرات الأثرية من بيت جعلوك لها طعم آخر بالنسبة له وأجملها صاحب الرأس الذهبي بأنفه المسنون، وتلك المحفور عليها سنبلة بلون القطعة الفحمية

التي تميل الى الأزرق الغامق جداً. حدسي الدائم عندما ألتقيه أنه كان راغباً بالمزيد من النقود المعدنية العتيقة والتحدث إليّ عن عمته التي تحب الذهاب الى الكنيسة يوم الأحد والدانتيل الأسود على رأسها، كالكثيرات من كبيرات السن هنا في صقلية ، كما تحب الداية الذي ولدته جلجولة وقد التقيتها اكثر من مرة في دكان البير، قصيرة وسمينة وزنودها غليظة جدا؛ لكنها عندما تتكلم اتمنى ان لا تصمت فكلامها يروقني عندما التقيها.

غالبا البرد في القبيات مزعج جدا في فصل الشتاء، ومع ذلك نجلس معا لنلعب طرة نقشة واربح الحلقوم والبسكوت وحبلا طويلا من سكاكر الهلال بالسمسم الشهية جدا. اذا جلس اي شخص مع البير قد يسأم من قلة كلامه؛ لكني كنت استمتع جدا معه من اجل ذلك. فأشاهد حلقة السندباد كأني وحيد أمام التلفاز رغم دخول البعض الى الدكان احيانا ليشتروا بعض الأشياء. ومن ثم تعلقنا بمشاهدة عدنان ولينا وعبسي، فهو أحب عبسي أكثر مني.

– ما تقص شعرك، اتركه طويلا مثل عبسي.

– بدك مكارم تجرني بشعرني عندما تغضب مني

– هههههههه أتخيل أن المشهد مضحك أكثر من مشهد عدنان وهو يجر عبسي بشعره.

والده لا يشبه مكارم لكن قساوته تختلف. كان يسمح له أن يأكل ويشرب من الدكان ما يريد، وأن يضع في جيبه بعض المعادن التي لم تعد تساوي شيئا اليوم،

لم تعد موجودة اصلا والدولار يحلق في لبنان عاليا، كما تحلق طيور الحرجل في مواسم صيدها. لكن على أن يبقى كل أيام الأسبوع ألا يوم الأحد في هذا الدكان الضيق بحجارته السوداء العتيقة. عليه أن يغلق الدكان ويذهب مع ابيه الى الكنيسة يوم الأحد وبعدها ليفعل ما يشاء. كان يجب أن أذهب معه الى الكنيسة لأختبر احاسيسه. ذهبت معه أكثر من مرة، وأعجبني الأمر استمتعت بالوقوف قربه، والاستماع اليهم في صلواتهم التي لا تشبه صلاة الحج علوان الذي يصمت كليا وهو يصلي. لكن لم اشاهد في حياتي مكارم تصلي، وإن سألتها تقذفني بالبلوط الذي تضعه في سلال من القش.

يحب البير القراءة ويلملم أوراق المجلات القديمة من بعض القادمين من بيروت وطرابلس الى بلدة القبيات التي تربط بين القرى رغم أنها ليست في وسط عكار؛ لأن مدينة حلبا هي كالعاصمة تزدحم فيها الدكاكين والتجار ، وهي نقطة الإنطلاق الى كل القرى الأخرى. زرتها مرة مع البيرتينو قبل أن نهرب الى ايطاليا. كنت أظن أن الإنسان السعيد هو الإنسان الذي يعيش صداقات كثيرة ومتعددة، ولم أكن أعرف أن في لحظة ما من الحياة لا بد وأن تشعر أن خيانة القدر هي أقوى الخيانات. ألم تخن أمي جدتي مكارم عندما تزوجت من ابي غصباً عنها، أو سرا؟. ألم أقم بخيانة مكارم عندما تركتها مراهقاً؟. لا أعرف ربما لا... لأنها ما احبتني يوما كما تهيأ لي. كانت تتكىء على الأحجار قرب المشحرة لتراقبني وأنا أجهزها لتحويل الحطب الى فحم يشبه كاوتيكو التي تشتعل كالجمر بعد كأس من عرق تجعلني أحبس أنفاسي لساعات معها في القبو الحجري.

يغريني اللون الأسود المحمر؛ كأنه الليل الذي اشعل فيه ناراً تصل حراراتها الى قلبي المتجمد.

– ما الذي تفعله لو عرفت أنابيلا أنك معي الآن؟.

– هي تعرف أني معك، ليست غبية، لكنها لا تسألني ابدا عن اي شيء من هذا. فلماذا تسألين ؟

– فضولي، لكني أعرف أنك مختلف مع كل امرأة تبقى معها. أشعر بذلك يا فشكول

– انت تذكريني بألبير ، تتشنجين عندما تأتي إلينا أنابيلا أحيانا وتبقى هنا أياما.

– لا أبدا، لكني أضطر للبقاء بعيدة عنك قليلا.

لم يسبق لألبير أن خالف أباه الذي يتشنج منه عند حضوره للدكان. أمه ماتت وهو بعمر الطفولة، أظن قبل العاشرة. كنت أهديه قطعا من العملات الأثرية التي أجدها، وأنا أبحث عن العكوب تلك العشبة الشوكية اللذيذة الطعم، خاصة المطبوخة باللحم مع الأرز، أو في رحلة التحطيب قبل التشحير، خاصة قرب مقام الرب في منجز الواقعة ايضا في عكار شمال لبنان، وفي منطقة الباردة بعد وادي القتيل الغنية بالفطر الذي أحضره من هناك . الفطر اللذيذ المقلي مع البصل واللحم المقدد والقليل من الذرة التي تخفيها مكارم في كيس من القماش معلق بمسمار على حائطها المدهون من اسفله بالقطران. مكارم تخاف العقارب، هذه العقربة كنت أسمع تنهداتها ليلا فأظنها مريضة أركض نحوها، فتنهرني بشدة

وكأني أنا العفريت الذي ينقبض قلبه من رؤيتها. لم افهم سر أصواتها ليلا. أيعقل أنها كانت تنتشي عفريتيا؟ أم أن عفريت جدي كان يضاجعها؟.

في جبال عكار وفي قرية منجز تحديداً كنت أشعر أني هايدي في الجبال وأطير فرحا متسلقا أو هابطا نزولا حيث الحجارة السوداء المهيبة في مقام الرب، غالبا كانت تضرب السكين قطعة أثرية كلما تقدمت نحوها نزولا من قرية البيرة مرورا بمقام الشيخ اسماعيل، أو نزولا قرب بيت أبي محمد الرجل العجوز الذي يعيش في هذا المنزل البعيد عن البيوت مع ابقاره وأغنامه، أو حتى قرب نبع جعلوك المحروس من جندل الناطور. وصعودا نحو القبيات وصولا الى دكان البير حيث التقي به، فيعطيني أيضا البزر، والعبيد، أو الحلقوم والبسكويت، وأحيانا نتبادل عملاتنا التي نهوى نقوشها خاصة تلك المنقوش عليها رجلا يجر عربة، وأنا تلك المنقوش عليها السفن وصاحب الشعر الطويل . أو المرسوم عليها سنابل القمح. تلك العملات لها اصواتها التي توقظك من سبات الدهشة .

تأتيني صور ألبير وهو صغير، ذلك الصبي الخجول الذي لا يمكن أن تتخيله أنه هو ذاك. فهو بعد أن غادرنا عكار او لبنان بالأحرى تغير شكله تماما. لا أعرف كيف أصبح ضخما فيما بعد واختفت عنه الملامح الرقيقة والخجولة. بل وشكله بدا أكثر رعبا مع التاتو على يديه وظهره، فبات كرجال العصابات او مافيات جزيرة صقلية، والأقرب الى شخصيات مذكرة الموت او حتى وان بيس الأنيمي الذي أعشقه.

اصبح شوفينيا بشكل مختلف وأسخف ما في الأمر أن اسمه أصبح البيرتينو لم يستطع تغيير البير، فزاد عليه تينو وفي الهوية بقى البير جورج بني. ربما لو استطاع معاشرة النساء لأصبح اكثر رقة وبعمق رجولي مختلف. هو ذكي وقليلا ما نفترق عن بعضنا بعضا عندما أكون في القبيات. وان تأخرت في زيارته نادرا ما يتكلم، فاعجز عن مغادرته حتى يعود لطبيعته معي؛ لكنه في ايطاليا أصبح أكثر قساوة وصمتا وعصبي الطباع، ويسخر جدا من النساء. لقد كان قنفذا صغيراً هادئا. إن لمسته او جرحته أخرج شوكه ليصيبك به من دون أسف، او اعتذار، أو حتى الشعور بأذية الآخرين. كنا نستمتع بالإمساك بالقنافذ عندما نذهب معا للصيد أو الأحرى عندما يسمح له والده بأخذ بندقية الصيد مع كم ضرب خرطوش، فنصطاد عصافير التوين ونشويهم ونأكلهم بلذة ونمسك بالقنافذ لنرميها في وادي عودين قبل أن نصل دكانه؛ فيدخل ليستحم وأبقى حتى انهي مشاهدة عدنان ولينا على القناة السورية.

البيرتينو هو الأوكسجين اللبناني الذي اتنفسه ونحن في ايطاليا. فأنا دونه أشعر بالإختناق. كان يفتخر أمام الايطاليين أن الأمير فخر الدين عاش في ايطاليا كما يعيش هو بعد هروبنا من لبنان . إلا انه شتان بين هارب، وهارب. او بين رجل دولة محنك، وصعلوك مهرب للآثار عاشق للقطع المعدنية. فصاحب الرحلة كما كان يحكي عنها البيرتينو هو فخر الدين بن قرقماس بن فخر الدين المعني الأول الملقب بسلطان البر.

وهذا كان يثيرني لمعرفة هذا الرجل أكثر إلا انني فشلت؛ لكنه كان يقرأ لي عنه احيانا من كتاب احتفظ به منذ زمن طويل. أما أنا والبيرتينو في ايطاليا كجرذين ضاعا بين الريف والمدينة.

ما زلت أذكر قصة فأر الريف وفأر المدينة التي كانت تحكيها لنا عمته برناديت صاحبة الصدر الضخم والمتلعثمة في النطق. عندما تجلس معنا في الدكان احيانا لتشرب الميرندا وتحدثنا عن مدينة طرابلس، ونحن عاجزون عن رؤيتها ، فنزداد حماسة لنزور مدينة طرابلس فنعرف ماهية هذه البلدة التي جاء منها دون ستيفانو. أو حتى مدينة البحر الذي حملنا الى ايطاليا معا، وكأننا في رحلة مع توم سوير في مغامرة لست أندم عليها الآن، ولكن أحزن على رحلة عمر ما عرفتك فيها إلا في نهايتها. حقيقة أنا كنت ضجراً من الحياة رغم أنها حملت لي الكثير من الغرائب، ولست أتأسف الآن عليها وأنت تقرأ كلماتي. صحيح أنني أروي لك حكايتي إلا أن لبعض التفاصيل في حياتي لحظات لم ولن يتقاسمها معي أحد. ولا حتى النساء اللواتي أمضيت معهن بعضا من حياتي.

لم يشعر ألبير بمحبة الأم إلا أن له عمة كانت تقدم له الطعام الذي لا يوصف، خاصة طبق الأرز بالدجاج المغطى بالصنوبر واللوز المحمص الذي يخبىء لي القليل منه الى حين مجيئي لدكانه؛ إلا أنني أفضل الشكشوكة بالبندورة والبصل المقلي و المقرمش المتناثر على البندورة والبيض كنت اسرق بعض حبات الفليفلة الخضراء من جنينة عمته برناديت ذات الشعر الثلجي والفم التفاحي الأحمر بشفاهه الغليظة. كانت تجلس على الكرسي ويدها اليمنى فوق ركبتها

تفركها وهي مسرورة بنا، ونحن نأكل معا. صارمة جدا في طباعها، أحيانا عندما نتأفف من كثرة الأكل أو من الاعتراض انه خفيف الملح . لكنها من المؤكد لا تشبه مكارم أبداً . كانت تطبخ وتترك الأكل في الطنجرة وتقول لي بصوت عال. اسكب الطعام وانفزر عندما تشعر بالجوع. اضافة الى قرقعة غطاء الطنجرة كصوت ليلة وداع رمضان عندما يأتي أبو المجد المسحراتي الذي يمسك الطبل وينادي على اصحاب البيوت باسمائهم للسحور.

من المؤكد لو رأتنا مكارم الآن لرجمتنا بالحجارة مع الشتائم التي تقذفها كالنار من فم دراغون بول الديناصور في رسوم متحركة أدمنتها منذ أن اصبحت أمتلك الخليوي والأنترنت واعيش السفر الأفتراضي مع ماهيركو، حتى ذلك اللاعب المثير للضحك القادر على جعلي أحلق معه بعيدا عبر لهجة عربية اشتاقها اصبح صديقي السري. سعيد بصداقتي السرية معه فهو لا يعرفني ولكني أعرفه واستمتع بصحبته في لحظات لا تتقاسمني فيها لا كاوتيكو ولا أنابيلا. مع ماهيركو أضحك وكأني اعيش معه مغامرة أخرى في عالم مسحور هو من واقع لكنه افتراضي النكهة.

أميل الى الافتراض أن النساء المرغوب فيهن في الحياة هن مثل كاوتيكو وأنابيلا وأعتقد أنني المحظوظ بذلك. فالقليل من النساء اللواتي ترغب بهن تلتقيهن في الحياة ومع ذلك تشعر أنهن يتهربن منك باستمرار.

من المؤكد أن والد البيرتينو لم يحبني؛ لأنه عندما يراني كانت معالمه تتغير وأشعر أن جلد وجهه يتحرك يميناً وشمالا، وجلد جبينه عندما يرفع حاجبية ينزل

ويصعد، حين رأيته أول مرة دب الخوف بي . وانكمشت على نفسي محاولا أن لا ينظر إلي وعيونه تتوسع كبومة تحاول أن ترى في النهار. قال مرة لابنه :

– من ابن الديوث هذا الذي تصاحبه؟

فارتبك البير وتمتم ..

– هذا ابن مكارم من قرية السن اشتري الفحم منه، ونجلس معا قليلا.

– واذا ابن مكارم يعني، كل شي زاد عن حدو انقلب ضدو، ما في داعي يبقى كتير بالدكان.

كنا صغيرين حينها. كنت أخافه وأشعر أنه سيلتهمني إن غاب البير. ومن ثم يتركنا بمفردنا بعد أن يحمل بعض الأكياس من بعض الرفوف، ويخرج وصوت انفاسه يتقطع؛ كأنه يتنفس من تحت كمامة سميكة كتلك التي تربطها مكارم خلف رأسها لتغطي أنفها عندما تكنس مطحون الفحم بعد التوزيع للدكاكين. يتكلم بغضب دائما هذا الرجل فاحمد الله أن لا ابا لي.

– ما ناقصنا، إلا العجّان نلملمهم من هنا وهناك .

لم أفهم كلمة العجان ماذا تعني. فالكل هنا يقول للأولاد غير المعروفين العجان. أبو ألبير يشبه مكارم قليلا في ضخامته، ويتمتع بأصابع ضخمة مفتولة كأصابع الديناميت، ووجه مجعد يشبه عجينة العوامة عندما تصبح جاهزة للقلي،

وهي من الطحين والخميرة وتغطس بالعسل. هممم لذيذة الطعم أصنعها غالبا وتحبها أنابيلا جداً. كان يتهيأ لي أن جلد وجهه فيه ثقوب كثيرة، كأن أحدا قام بتعذيبه بوخز الأبر. كان سبق لي أن رأيته مراراً وتكرارا في ساحة القبيات لكني كنت أتجنب الكلام معه كثيراً.

لم اقل لك أن مكارم ضخمة جداً تميل في مشيتها، ويهتز لحمها. لا أعرف اي ذنب أقترفته مع الله ليجعل من مكارم جدة لي ويأخذ أمي وأبي. فهي شخصية قاسية لا تتمتع بحنان المرأة أبداً. وعندما تنغمس معي في تحضير المشحرة تفقد النطق نهائيا، فتبعث بي التوتر والكراهية نحوها أكثر فأكثر. وصوتها أشبه بصوت جاروشة البرغل التي أطحن بها الكشك. حضور هذه العجوز المتعجرفة غير الأليفة طاغ في ذاكرتي.

أكرهها حتى في ذكرياتي. في نهاية المطاف لا بد من الأعتراف أني تمنيت قتلها أكثر من مرة. وتمنيت دفنها في قبور الحجارة داخل كهف في جبل أكروم لتبقى عظامها بعيدة عن العالم برمته. أو حتى في مقبرة من مقابر مقام بيت الرب .

عشت حمارا مع ناريش واستشعرت هموم صديقي ألبير المولع بهجر أبيه منتظراً لحظة ما ليغادره الى الأبد.

– مللت من هذا الدكان، كل يوم استيقظ باكرا افتح الدكان ابقى فيه للمساء ومن ثم النوم والاستيقاظ باكرا. ماذا يوجد في القرى الأخرى؟

– كما يوجد هنا عالم وناس ودكاكين، إلا في قريتي مشاحر وفحم وزراعة قمح وعمل كشك.

– يا أهبل، وعمتي برناديت تهتم بالكشك ودبس الرمان أيضاً

– ألا تظن أنه يجب العيش في مغامرة دائما؟

–مغامرة؟ تقصد مثل عدنان ولينا أو أن نسافر كالسندباد؟

– نسافر كالسندباد من بلد إلى بلد ولا نبقى هنا بين الحجارة السوداء.

واذا شئت التعبير أكثر أنا أيضا كنت مولعا بهجر المتيبسة مكارم. إلا أن البير شخص عاطفي يميل الى الذهول دائما . فكلما نظرت اليه تجده فاتحاً فمه وينظر بشرود الى الآخرين ، كأنه ينتظرهم ليتكلموا، كنت اضربه بكف يدي على فمه المفتوح. فيصدر صوتا يشبه صوت قنينة البيبسي الزجاج عندما تفتحها بالمفتاح الحديدي المربوط بحبل يتدلى من خزانة صغيرة معلقة فوق كرسي القش الذي يجلس عليه البير. هو نحيل جدا وساذج نوعا ما وصاحب أنف طويل.

كأنه أشبه ببطل الأنيمي "ديث نوت" في مسلسل " مذكرة الموت". اسمه لايت وهو الصبي الذي يمتلك مذكرة يقتل فيها أي شخص يكتب اسمه في المذكرة فيموت. كنت أتمنى كتابة اسمي رغم خوفي من الموت. لكن مذكرة الموت

خاصتي تضم اسم مكارم فقط. يا ترى عزرابيل يحمل مذكرة للموت يكتب فيها من الذي سيقبض روحه كل ثانية في العالم؟

كان يشن هجوما كاسحاً كالمعتاد علي عندما يرى في يدي قطعة معدنية أثرية مرسوم عليها وجه رجل بشعر طويل أو القمح بسنابله الثلاثة، فنتبارز ونتراهن قبل البدء بجولة لعب طرة نقشة، فأربح الكثير من البسكوت والحلقوم، أو أشرب الميرندا والبيبسي والسفن آب. ويأخذ القطعة النقدية العتيقة ويرقص رقصة الهنود الحمر. كما يفعل توم سوير الذي اشاهده على تلفازه ونحن في دكانه الصغير . والآن اشاهده على محمول بين يدي لله در الزمن كم يتغير؟.

طفولتي مع ألبير أو البيرتينو هي طفولة توأمية بدأناها في عكار وما زالت حتى يومنا هذا الذي أكتب فيه هذا الكلام لك. إلا أن ما فعلناه في ايطاليا لا يشبه أبدا ما قمنا به في عكار . باستثناء الأكل واللعب طرة نقشة والمراهنات على العملات الأثرية التي ما زال بعضها حتى الآن في جرة الجنية مكارم خلف الحجر الرمادي الطويل الذي كنا نجلس عليه أمام باب البيت. دفنت بيدي الكثير من العملات في اماكن متفرقة أغلبها قرب مقام السائح على طريق دنكة القصير وقرب المدافن الحجرية والأثرية بعمق كبير لا أظن أن أحدا وجدها.

منحوت عليها حية معبد يشعرني بالخشوع فأحب البقاء فيه بعيداً عن مكارم. بعض الحجارة محفور عليها حكايات غامضة ما زلت افكر بها حتى الآن.

أعتقد أن هناك الكثير من الأحداث في الحياة لا تدرك خيرها وشرها ما لم تعرف أنك اصبحت بعيداً عنها. بالرغم من انها كانت مقصدا لك. وتبتعد الذكريات عن ناظريك عندما تُسعدك الحياة؛ لكن فجأة تشعر بشريط الحياة السينمائي يمر أمامك كالحكاية التي اكتبها لك. انا بظلمة باردة وضيق نفس لا يرحم . ذكريات تدغدغني، وما يؤلمني هنا أن لا أحد يحفل بي ولا أم تكترث لأمري. ولا حبيبة تحطم الزجاج من جديد حولي. لكن أحاول استكمال الحكاية، ولحسن الحظ لا احتاج ورقة وقلم، وكل ما احتاجه هو البقاء في هدوء تام الى أن أنهي حكايتي. فالكتابة على الخليوي لا تحتاج ورقة وقلما، ولا حتى مقدرة كتابية لم اتعلمها جيداً بعد أن غادرت كهف الشيخ نظير الذي لم أحبه ولم يحبني. لكن ألبيرتينو استطاع تعليمي اللغة الإيطالية بعد ذلك استطعت تخطي الكثير من الصعوبات لأكتب القليل على صفحات محادثة شبكات التواصل. على الفايسبوك نوريس لوتشيو هو ايطالي تاجر لوحات فنية وصاحب المتحف الافتراضي متحف لوتشيانو.

متحف لوتشيانو هو متحف افتراضي أنشأته لي أنابيلا. رغم أن الكثير من المعارض شاركنا بها في اليونان وقبرص وأسبانيا وهنا في ايطاليا مع كاوتيكو. كنا نسافر معا من دون أن المس بأحاسيس البيرتينو الذي لم يقطع صلته بي. بل على عكس ذلك زادت ارباحنا من العملات النقدية الأثرية بعد تدهور الأوضاع في العراق وسوريا، فقطع الآثار تخطت العملات وغرقنا في الحجارة الصغيرة. فالعملات النقدية باتت في اللوحات وفي حبوب الفحم النشط كاللؤلؤ في نهر

المسيسيبي لأني لا أحب اللؤلؤ الصيني. فكاوتيكو لؤلؤة سوداء مكسيكية معي هنا في ايطاليا. ناهيك طبعا عن حماقاتها في الغيرة من كاوتيكو، رغم أنها تعرف مدى تعلقي بها. أمر سخيف غيرة النساء وسأظل أستخف بغيرتهن حتى الموت. فالمرأة التي تحبها وتحافظ على بقائك معها هي تلك التي تحافظ على سحرها الذي عرفتها من خلاله. وهي التي تجعلك تبتكر كلما التقيتها. وأنابيلا كذلك، أما كاوتيكو فكانت ذلك المزيج بين الأم والحبيبة. فهي هادئة تحتضنني كلما شعرت بحزني، وعذوبتها كعذوبة ماء نبع جعلوك في عكار.

يسيل الزبد من فم العجوز مكارم عندما تصاب بموجتي غضب وغيظ تجعلانها لا تهدأ ولا ترق ولا تحنو أياما عدة. أدرك ذلك عندما تبدأ بقضم أظافرها وهي تغلي الدوبيركة، وهو مغلي اللبن الذي أعشقه في فصل الشتاء مع الخبز المحمص وزيت الزيتون الأصلي. كانت تكتفي بارتداء تنورة طويلة جدا وقميص سميك بجيوب متعددة وتحصن قدميها بنعل من الكاوتشووك لا أعرف من اين تجلبه. لكنه تضليلي، فلا تسمع وقع اقدامها لو حاولت قتل كل الأصوات الأخرى. ولكن ترتج من قرقعة الصحون وهي تضعها على الحجارة؛ كأنها تضعها على رفوف الماسية.

– يا شنتير ما تترك الصحون على الحجارة بعد أن تنشف من الماء. ضعهم على الرفوف فوق الدرفة.

– أنا نورس يا مكارم لا تقولي شنتير .

– لو فيك خير ما رماك لي الطير.

– لهيك سميتيني نورس؟.

– ابوك كان اسمه ابو نورس، فسماك نورس وانقلع من الدني.

– هل مرض؟.

كانت ترميني بعدها بحجرة تلتقطها من بين قدميها فأركض خلف الشجرة ريثما تدخل البيت. مكارم قاسية كجذع شجرة قديم نجلس عليه تحت العريشة في صباح ربيعي ينسينا قساوة الشتاء وثلجه، في قرية السن، ولا أعرف لما اسمها السن وهي قرية تقع الى الشرق من بلدة البيرة، وتفصلها عنها بلدة المجدل التي كنت أزورها لتسليم الفحم للشيخ القادري. ربما لأنها كالسن الوحيد في فم عجوز منهك لا يستطيع اغلاقه. يمكن بلوغ قرية السن عبر بلدة السنديانة. وهي في كف الطبيعة وحيدة بعيدة عن القرى المجاورة تكتسي بالثلوج في الشتاء، وعندما تزداد نوبة غضبها عن الطبيعي المتعارف عليه بقية الأيام، كنت أهرب لجمع حطب السنديان تجهيزا لمشحرة فحم جديدة. أو إن استبد بي القلق والذعر الشديدان من نوبة أخرى. وإن اخطأت ببناء المشحرة أو وقعت في غلطة فيفسد التشحير تثور وتصرخ وتشتم كطاووس غاضب مشحون بالاستهجان. فأطلق ساقي للريح وأختفي عن قرية السن أياما نائما على مقابر بيت الرب أو بيت جعلوك ليلا، أو مختبئا في كهفي الحجري الملاصق لبيت مكارم إن كانت الثلوج عالية وتغطي قمم الجبال العكارية. رغم أنها تعرفه فهو غرفتها أيضا التي تخبىء فيها مونتها

غالبا أو تلك التي تضعها للتخمير كالتفاح والعنب. واذا رأتني بعد بضعة أيام تغض بصرها عني وكأني ارتدي قبعة الإخفاء. وأنا أراها كالماء العكر الذي أجلبه من بئر الحاج علوان التي يشرب منها أهل القرية أن لم يستطيعوا الوصول الى النبع في فصل الشتاء. الماء في بئر الحاج علوان لا يمكن أن تشربه، ولا يمكن الاستغناء عنه في فصل الشتاء. عكر كالزيت أول عصره قبل تصفيته أياما، هكذا كان يقول لي الحاج علوان ماء البئر في الشتاء تحتاج لتصفية أياما، او أنزل لنبع جعلوك واشرب ماء باردا لا يحتاج لتصفية .

–لكن الماء في بلدة القبيات ولو من البئر هي صافية .

– لأن بئري تحتاج لقمصان وهي مكلفة.

– وهل للبئر قمصان؟

– نعم هي حماية لجدران البئر كي لا تنسلخ وتصبح المياة مختلطة بوحول التربة.

– هممممم ، فهمت

أما مكارم فأشعر أحيانا أنني بقيت لتصفية حسابها من أمي؛ لأن كل شيء يغضبها لو مررت من أمامها فقط. إلا أنني أعشق الجبن من صنع يديها، فالحليب الأبيض في الطنجرة النحاسية الكبيرة على موقد الحطب يثير شهيتي

كما تثيرها أنابيلا تلك العفريتة البيضاء. ما يزعجني هو أصبع مكارم الأسود عندما تغطسه في الحليب لتستشعر حرارته قبل أن تسكب فيه كوبا كبيرا من الخل الأبيض وتبدأ بتشكيل الجبن. وأنتظر رؤية وجهها وملامحها التي تشي بأن كمية الجبن مربحة؛ فأشعر بالسعادة وأنا اخفي القليل من السكر في ورقة سمراء امزقها من أكياس الباطون المرمية على الطرقات واخبئها لأمسح بها الأوساخ عن يدي أو فمي أو بعد تفريغ معدتي من البراز . لا شك أن الفرق كبير عندما تلامس أوراق أكياس الإسمنت المؤخرة عن ورق المحارم الناعمة التي في بيت أنابيلا أو كاوتيكو. لكني في حقيقة الأمر افتقدت خشونة ورق اكياس الإسمنت على مؤخرتي وحتى فمي وأصابعي. أتصدق خشونة هذه الأوراق تنظف بشكل أفضل من أوراق المحارم الناعمة هذه. التي تلتصق بيديك واصابعك ان تلوثت بزيت او شحم او حتى بعد الانتهاء من مضاجعة امرأة.

يجب أن أذكر أني كنت أضع السكر في هذه الأوراق لأغمس الجبن بالسكر وأنا على ظهر حماري ناريش في رحلة بيع الجبن في دكاكين القرى المجاورة. حيث كنت استمتع بصوت خطوات ناريش وأنا أحبس أنفاسي وقلبي يخفق بشدة عندما نقترب من نزلة قاسية أو من الاقتراب من حافة وادي عميق. ذلك لأني الآن اشتهي فعل ذلك. فالجبن الإيطالي الموزاريلا ليس أطيب من الجبن البقري الذي كنت انتظره بفارغ الصبر عندما تصنعه مكارم. لكني حقيقة أميل الى طعم الريكوتا لأنها الأقرب لجبن مكارم .

هل تعرف ماذا كنت أفعل بالسكر المتبقي؟. كنت أضعه على النار في وعاء المنيوم مخبأ في كهف مقام الرب في نبع جعلوك وأصنع السكاكر. أقوم بوضع السكر على النار فقط حتى يصبح أشقر أدكن، وعندما يبرد أكسره الى قطع صغيرة.. فيصبح كمرايا أنابيلا المتكسرة. إلا أنه بطعم السكر الحلو المذاق المعسل، كطعم تحت إبط انابيلا لذيذ، وامجه كمج العجل ضرع أمه. ابط أنابيلا كالحليب البارد الحلو المذاق، وأصابع يديها كملبن التفاح الذي كنت أصنعه عند جدتي مكارم واسكبه على شراشف قماشية واخفيه للشتاء كي ألفه مع الجوز واللوز الذي اشتريه من البير بالعملات الأثرية. ما كنت أجده من نقود معدنية مختلفة لم أكن اعرف سر هذه النقود إلا بعد أن غادرت لبنان ومعي مئة قطعة في كيسين من أكياس جدتي مكارم التي تستخدمهم لصنع اللبنة. أكياس من الخام الأسمر أو الخيش البني الذي كانت تفركني به مكارم عندما استحم وانا ابن السنوات القليلة قبل أن أكبر وأزرع الليف لأرتاح من كيس الخيش عندما استحم.

كنت قادرا على ضبط النفس عندما تنفعل جدتي مكارم وترغي وتزبد. لهذا كنت احاول لفت انتباهها للمشحرة. فكلما كان محيط المشحرة اكبر كانت اسرع بالالتفات للعمل، فيزول غضبها رويداً رويدا وقد يصل اسبوعا. لا أدري ماذا تفعل بالمال الذي تأخذه مني بعد بيع أكياس الفحم، تغيب لأيام كل شهر وعندما تأتي تبقى لأيام عابسة مكفهرة. كأن كارثة وقعت فوق رأسها؛ إلا أنني أشعر براحة شديدة وحدي دونها حيث استلذ بشكل جنوني بطبق الشكشوكة، فاستخرج كل ما أخبئه من بيض تحت شجرة الجوز وأسرق بعض حبات البندورة من

حاكورتها المزروعة بشتى الاصناف، خاصة الرمان والعنب إلا أن الرمان يمكن الاحتفاظ به بعد أن يجف قشره فيقبى لأشهر واحيانا للربيع. وما أطيب البطريش وهو سرقة باتنجانة كبيرة من حاكورة حاج علوان وشويها على الحطب في بستان أم وليد ودقها بحجر في صحن خشبي مع الثوم ومزجها باللبنة من نملية أم خديجة ووضع حبات الرمان عليها، والأكل بالأصابع حتى التخمة. النملية هي صندوق خشبي محاط بشبك كي لا تدخل إليه الحشرات.

تمنيتها أن تموت مرات عديدة لكنها قوية تلك العجوز، أقوى من سنديانة حاج علوان الذي عندما يراني خارجا من القرية يقف واضعا يديه على خاصرته.

– ما الأمر تشحيل شجر او بيع فحم؟

– لا هذا، ولا ذاك لأني ذاهب لأشتري لجدتي فتيلا للسراج وعلكة طبخ من عند أحمد الحجة بالبيرة.

– اشتري لي معك كم ضرب خرطوش للصيد موسم الحرجل هذه السنة مهم، ويجب الاستعداد لصيد ديك المي..

– أريد الذهاب معك للصيد هذه المرة.

– لماذا. ألم تعد تريد صيد النقود الأثرية ؟

– وما أدراك يا حج علوان؟

– قالت لي مكارم عن ذلك، هذه لها ثمنها الخاص ويمكن بيعها بثمن كبير .

– اتقول الصدق يا حج علوان؟

نعم، اقول الصدق ولكن لها ناسها، لا تسمن ولا تغني من جوع ما لم تجد مشتريها؛ يعني نقعها واشرب ميتها بالمشربحي.

حج علوان بشارب أبيض كثيف وملامح رجل الثلج الأبيض يمد يده الى جيب شرواله التي قد تصل الى ما قبل ركبتيه ويضغط على الليرات الورقية قبل أن يعدها. فأشعر أن يده لن تخرج قبل ربع ساعة من البحث عن نصف ليرة أو ليرة كاملة من المعدن لي فلا يجد في كل مرة. إلا أنه يعطيني بعض حبات السكر النبات. فأمتصها أحيانا وأحيانا اتركها لتحلية فنجان من البابونج. لأن الشمطاء كالنمل تخفي السكر أحيانا ولا تظهره الا في فصل الشتاء عندما تريد شرب الشاي المغلي على موقد الحطب. أو البابونج مع الورد المجفف. أو مغلي القصعين الذي اكره رائحته جدا. أو مغلي الشاي الأخضر الذي اقطفه من جنينة الحاج علوان عندما يأخذ غنمه للمرعى.

يعطيني الحاج علوان ثمن الخرطوشات مبتسما مراقبا الى أن اختفي عن ناظريه. هو يبلغ من العمر ما يقارب السبعين ويعاني من الدوالي، فاللون الأزرق يغطي كاحليه. يمشي على عكازه وخلفه كلبه، فيستريح على صخرات سوداء بين كل بيت وبيت. إن عدت في اليوم نفسه قبل العصر كان يندهش لأني لم أتأخر . لا أعرف لماذا الرجل يختلف عن المرأة، فعلاقتي مع الرجال تتخذ صفة مسالمة. لم يغضب مني الحاج علوان أبدا رغم خبثي معه أحيانا، لأني اخفي خرطوشة صيد في كل مرة. أفتحها وأقوم بتذويب الخردق وأسكبه على الحجارة ليصبح

لامعا وأحتفظ به في جيبي؛ لأشعر أن جيبي مليء بالنقود المعدنية. التي أحب صوتها؛ فالعملات الأثرية، إما ابيعها لالبير أو تأخذها مني الشمطاء لتضعها في جرتها إن صودف ورأتها معي. أو الأحرى عندما تغسل لي بنطلوني المرقع بقطع ملونة. أشعر الآن أني كنت ارتدي بنطلون مهرج في سيرك قديم؛ لهذا كنت أخفي بعضها غالبا قبل أن أصل بيت جدتي بكيس اللبنة خاصتي مع البيض تحت شجرة الجوز.

الحج علوان أشبه بناسك ذي شعر أبيض يقف على مدخل قرية السن، وأغنامه تحيط به وهو يحدق بهم، وعيناه تتبعاني بحنو كنت أشعر بذلك رغم صغر سني. وكم تمنيت لو كان هو جدي الذي أسكن معه غير أن الله تركني مع كثرة السباب والشتائم مع مكارم التي كأن وجودها في الحياة يتلخص في شتمي وشن هجوما عدوانيا مستمراً نحوي. وتذكري الدائم لها يصيبني بالنكرزة هي كما أقولها له نكرزة التنكرز هو كمن يوخزك بسيخ خشبي وأنت نائم فتستشيط غضبا. كنا نجلس متباعدين قرب الموقد في الشتاء وكأنها تخافني وأخافها. أنا على كرسي القش الخشبي، وهي على حجرها المعتاد المفروش بأقمشة تجمعها من الجيران وتجعل منها فرشة أو وسادة صغيرة .

لكن حياتي مع النسوة صورة متكسرة بمختلف الأحجام والأشكال من الفحم الى الزجاج. كل شيء يصبح قذراً من حولي عند غضب إحداهن فجأة ولأسباب تافهة. لعنة التكسير هذه أعشقها رغم أنها لعنة تصاحبني، كما أنني لا أفهم ما معنى ضعفي أمام هذه اللحظة التي أجبر فيها نفسي على كظم الغيظ وأمنعها

من الانفلات، فأشعر بالشفقة الممزوجة بالغيظ نحو القروية العجوز مكارم وشتائمها والمتجسسة ليلا على نوافذ البيوت لتستمتع بالتنصت الى أسرار النساء قبل أن تقرأ فناجين قهوتهن وهن يصطحبن لها اللوز والملبن والباتنجان المكبوس بالجوز. كنت أقول أحيانا لا بأس بالتنصت طالما أنني ساستمتع بالباتنجان المكدوس. كما كنت استمتع بالعملات الأثرية عندما أجدها مغطاة بالتراب، فأنظفها وأنقعها بالماء لتظهر رسوماتها واضحة قبل أن ابيعها لألبير أو ألبيرتينو حاليا .

كنت أشعر بالاستفزاز والاندفاع نحو عذوبة الحب المخزي الذي أعجز عن التحكم به تجاه البعض ولا اشعر به نحوها، أو بالتوقف عن استفزاز غضبها او استحضاره لأشتعل من كرهي لها كما يشتعل ناريش عندما افرك له أذنيه أو أضربه بحذائي الخشن وأنا امتطيه. ربما أنا دنيء وغد واستحق شتائم مكارم التي تنهال عشوائيا من لسان لا يتورع عن التلفظ بشتى الكلمات. أولها يا ابن العفاريت، يا ابن الشراشيح، يا لك من أحمق أهبل ومجنون، يا ابن المغضوبة، يا ابن الكركوبة، كأنما لا يكفيني وجودي معها منذ ولادتي إلا هذه الشتائم الملطخة بزبد الغضب الذي ترشه بوجهي، وايماءات وجهها المرعبة ما زالت تطل علي من نافذة أحلامي كلما هجرتني أنابيلا أو ابتعدت عني كثيراً كاوتيكو تلك السوداء النادرة أثريا.

كانت تُشعرني أن أمي أخذها الله لترتاح من هذه العجوز البومة بصوتها الخشن المتفاخرة بأصولها التركية وهي تقوم بعد البيض أغي أوغ الخ.. وبأن القدر قذفها

الى هذه القرية عنوة. إلا أنني كنت أشعر أنها ولدت من مشحرة فحم ، ومن هذه الأرض المملوءة بالحجارة السوداء. ابنة الهرش الدائم، فهي تحك دائما فروة رأسها عندما تغضب، وأحيانا أدرك أنها ستغضب عندما تبدأ حك أذنيها، فاطلق ساقي للريح واتوجه الى تلة الأموات في قرية السن. تضحكني بيغ مام في مسلسل وان "بيس " رسوم متحركة اشاهده على الخليوي في قبضة يدي قبل أن تصيبني نوبة ضيق في التنفس يغمى علي بعدها لإصابتي بهذا الفيروس اللعين. لم أصب بالربو أبداً كنت دائما قوي البنية متعافى من الأمراض عكس ألبيرتينو الذي يمرض أياما عدة ويبقى في بيت عمته تاركا أباه في الدكان. تصبح الأيام سوداء في عيوني عندما كان يمرض البيرتينو؛ لأني سأبقى بلا بسكوت ولا حلقوم أسابيع حتى يحين موعد عودتي الى بلدة القبيات مرة أخرى على ظهر ناريشو.

يا ليت مكارم تشبهها. لكن شتان بينها وبين مكارم؛ فشخصية بيغ ماما في مسلسل وان بيس والرعب الحقيقي في مشاهدته هي عندما تغضب بيغ مام أو الأم الضخمة، واسمها شارلوت وهي شريرة جدا وملونة بكل الألوان التي تثير الاعجاب رغم ضخامتها كنت اتساءل ماذا لو كانت البيغ مام جدتي؟. عصر الأنيمي هو عالم أحب العيش فيه وكل حركة فيه تنعشني وتجعلني أحيا داخله بسعادة. من اجمل اختراعات العالم هو الأنيمي ومشاهدته عبر الانترنت. كنت فيما سبق احاول سرقة رؤية تيلي تابيز من شباك أحد الجيران أو حلقة توم سوير وأحلم به وأفكر بالهرب من مكارم كثيراً. لكن ساندي بيل لم أحبها أبداً. أترك

شباك أم وليد عندما تبدأ لابقى مع ناريش وفنجان الشاي على الفحم مع لفة الأريش.

تطفو مكارم في ذاكرتي كغريق لا يريد الموت. أحاول محوها إلا أنها تتعمد الظهور وترتسم على وجه أنابيلا وهي تصفعني وأنا غارق في لذة لا يشبهها شيء. ان اعتصار ذكريات الطفولة يأتي على هيئة كوابيس أو على صورة حلم عقيم تستفيق منه، ولا تذكر منه الا وجه انسان تكرهه، أو كأنك في بطن أم لا تستطيع الخروج منه مهما حاولت؛ فتستفيق وأنت تتخبط في ماء لزج على فراش تريد حمله بعيداً كي لا تراه مكارم مبللا؛ لتسمع الشتائم تنهمر كأنك في معركة صيد الحرجل في موسم تشرين الثاني.

كنت أشعر أن قلبي سينفطر عندما أصحو صباحا وفرشتي مبللة؛ كأني وقعت في شرك مترنحاً متألما فأجري كالسهم حاملا فرشتي الى السطح إن كان الطقس مشمسا، وإن كنا في فصل الشتاء أغمر فرشتي بالتبن، فتدرك مكارم اني بللتها، فتعدو كالسهم قربها متمتمة " يخرب بيتك شو ها الريحة " فاصمت ولا اجرؤ على الكلام.

– يا مصنصن سخن مي على الموقدة واستحم واغسل ثيابك

– يا مكارم بلا معارك عبكرة الصبح.

– ريحتك مصنصنة، لا تبقى دون استحمام اليوم وغسيل تيابك. والا قضيب الرمان بيشتغل شغلو اليوم

– قولي ابو علي ليش تغيري اسمو لقضيب الرمان

– يخرب بيتك شو بتحكي ، بلا فزلكاتك يا مهري

– كترت اسمائي ما شاء الله

كالعادة الحجر كان في انتظاري لترميني به فاهرب لاختبىء خلف الشجرة . لكن بعد ذلك اسخن الماء على الموقدة واستحم في الطشت الكبير.

كنت قد أعددت نفسي لأكون تاجر فحم مع حماري ناريش. ليس لأصبح غنيا، بل لأجمع في كل مرة المزيد من ورق أكياس الاسمنت واخفي في كل ورقة المزيد من السكر وابيع ما تبقى لألبير. كان يستخدمهم للف العبيد المحمص، او البزر كحصص جاهزة للبيع ويفخر أن العبيد والبزر في دكانه يباع بالورق. مع أنني منذ مطلع شبابي مع البيرتينو في ايطاليا إلا أن ذكريات طفولتي معه لا تنتهي، ليس لأنني لا انسى تفاصيل حياتي معه في عكار او مع جدتي، بل لأن ظلي مازال قابعا في بيت جدتي مكارم وأشعر لست أنا الذي هرب الى ايطاليا وعاش بتسارع العمر الذي لم اشعر به كما ينبغي، وان ظللي بقي في عكار مع مكارم التي لم تغادر صورتها رأسي.

أتعرف شيئا؟ أتمنى العودة الى الحياة مجددا لأكون كصبي القش في مسلسل "وان بيس" وأقتل كل من يزعجني وأحقق أحلامي لأكشف عن المدن النائمة تحت التراب وأجمع الكثير من العملات الأثرية. وأبيعها واحقق ثروة وأدمر العالم كله

بعدها. كانت دمعاتي الصغيرة تتساقط عندما تأخذ مني مكارم ما تجده في جيبي من عملات اثرية. جفناها المنتفختان يجعلاني اتمنى أن ينفجرا.

لم اتخيل يوما أن اتركها لتلك المرتعشة والمفزعة كاليقطينة في الهللوين الذي يحتفل به البير. والأمر المدهش هو أنني أبقي بعضها في يدي، ولا تنتبه لما يبقى فيها.

لا أعرف كيف أفسر أو أصور جمال أنابيلا وأنا أُصفع، وكم يسعدني ذلك، فكل قطعة زجاج في بيت أنابيلا تصبح على وجه الدقة كقطع الفحم التي تطحنها مكارم بعد تكسيرها الى قطع صغيرة بحجر طويل يشبه ساعدها؛ لتصنع منها الفحم النشط لتبييض الأسنان وللتطهير من كل شيء كما كانت تقول لتداوي كل من يلجأ اليها عند الإحساس بأوجاع البطن او القالوع الذي ينتشر في الفم، وهي تؤمن بهذا منذ زمن طويل، سيكون الأمر لاذعاً لو قلت منذ وعي أدركته وأنا في العاشرة من عمري تقريبا.

كنت أشعر شعورا ممزوجا بالكبرياء والذل عندما يقصدها شاب، وتتلذذ بالشرح له كانها طبيبة ذات حاجبين سوداوين غليظتين تتراقصان مع كلامها...

– هذا يحمي من جميع الأوجاع، ومفيد لكل أنواع السموم.

– يا خالتي متأكدة؟.

– طبعا يا ولد ، أنا أمامك ما بعمري قلت أخ.

ومن ثم تقدم له شراب العرقسوس أو الخرنوب الذي أعصره لي، أو فنجان الماء زهر. وشتان ما بين مطحون الفحم بعد تكسيره عند مكارم التي غالبا ما كانت تستلذ بمص الفحم المطحون، وهي تبتسم كأنها انتصرت على القطع الفحمية الكبرى، وتغضب مني إن لم أضع منه القليل في فمي كما كانت تفعل وهي تمضغه كعلكة مستكة شهية كنت اشتريها من دكان أحمد الحجة.

كنت أشعر بسعادتها وهي تمضغها ببطء، فتصبح كالجمل المسافر الذي كنت أراه في مرج قرية البيرة وانا ابن العاشرة من عمري تقريبا. فلا تبتسم الا اثناء مضغ العلكة المستكاوية. وعندما ترمقني بنظرة حينها أشعر أنها تحولت الى امرأة رغم حجم شفتها العليا التي ترعبني عندما تتضخم، ويسيل من فمها الريق كالماء اللزج الذي يسبق الاستمناء أحيانا، فتمسحه بكفها الخشن، ولكن يكفي أنها تقدم لي الخبز اليابس مع الزبدة البقرية والسكر الأسمر في أيام القحط الذي يصيبنا. رغم قسوتها كانت تحنو أحيانا عندما تغتالني سخونة شديدة. على أن هذا لا يمنعني من معاندتها عندما كانت ترفض ذهابي الى بيت جعلوك، رغم أني كنت أحضر لها الكثير من القروش المنقوش عليها الحكايات التي تروي لي بعضها أحيانا، قبل أن ترميها في جرة داخل شق خلف الحجر الرمادي الذي أجلس عليه أمام باب البيت. او تضع بعضها داخل كرة من الصوف ملفوفة بعناية، كأنها كرة قاسية من خيطان ملونة وترميها في سلة القش الكبيرة القابعة في زاوية كوخها. ولا أعرف لماذا كانت كانت تنقص تلك الكرات الصوفية كلما ذهبت لأيام الى مدينة طرابلس. فاشعر بسعادة غامرة لأبقى وحدي اسبوعا تقريبا

متحررا من عينيها وصوتها .لذا كنت مستعدا دائما في الحياة لأعيش في وحدة لا ينغص فيها أي أحد عيشتي.

كم أشتاق أن أحدق بها واتفرس بملامحها أكثر اليوم. انني أحسدها لأنها ما خرجت من قريتها مذ عرفتها إلا الى طرابلس حيث تبقى لايام وتعود من دون كراتها الصوفية، ولا يهمها ماذا يوجد خارج حدود كوخها فيما بعد. فهي في احضان الطبيعة على طبيعتها. فهل ثمة فروقات بين انسان استرخى في الحياة وعاشها في مكان واحد لم يبرحه يوما وانسان عاش في سفر دائم ولم يشعر باستقرار حتى وهو بين احضان حبيبة مجنونة يمكن لها أن تهجره في لحظات. لكن كل شيء مرده للقدر الذي يتغير في ثوانٍ ويضع أمامك اختيارات عديدة لكل منها طريق تسلكه، ولكل طريق ثمن ندفعه من حيواتنا المتغيرة في كل مرحلة. ربما أنا لست هو الذي عاش مع مكارم لكن هو الذي عاش مع انابيلا.

لا تقاطعني وتضحك وتقول لي أن الحظ هو قدر مرتبط بالارادة وحرية الأختيار. أنا لم أختر جدتي أو أمي، ولا أنت اخترت أباك أو جدك، لكن لا يلقاها الا صاحب الحظ العظيم في الحياة. وإن شئت اضحك فأنا استحق ان تسخر مني؛ ولكن لن أكف عن حكايتي لانه يروق لي ما أشعر به وأنا اكتب لك ما يثير استغرابك ربما أو حتى ما يثير خجلك مني. سأسند رأسي قليلا قد يغضبك هذا لكني سأفعل، وإن وجدتني ميتاً تمدد بجواري مرة أخيرة وأقرأ ما كتبته لك. أكثر النجوم لمعانا هي الأبعد فالأبعد فالأبعد، وأنا أشعر أني نجمة تبتعد وتشتد لمعانا.

مضحكة مكارم رغم قساوتها، فهي بغيضة جداً عندما تثور ، فاختبىء في كوخها القذر الذي يهتز في فصل الشتاء، ويتأرجح كمركب في بحر غادرت فيه آخر مكان في الدنيا وهو قرية جدتي مكارم. لكني أدرك في المقلب الآخر أنها تخاف الحنان، ربما أصبحت اليوم تسعينية. كم أشتاق لرؤيتها في أرذل العمر رغم كرهي الشديد لها أو ربما غضبي الشديد منها، ربما همدت حركتها. لم ألتق بها منذ ثورة غضبها الأخيرة قبل أن أهجرها، وهي لا تملك من مفاتن النساء ما يمكن للمرء ان يفتتن به أو ينجذب اليه. محاولا أن أواسي نفسي بأنها جدتي أولا وأخيراً، وهي من أبقتني في بيتها لأتقاسم معها حتى غرفة نومها لا أقصد غرفة نومها كما هي حال غرف النوم اليوم. غرفتها كانت غرفتنا للنوم والجلوس والمطبخ خلفها، وهو بحجمها تقريبا.

كنت أساعدها في الكثير من الأعمال وأسرق البيض من دجاجتها؛ لأدخره ليوم لا تشاركني فيه مكارم طبق الشكشوكة بالبصل المقلي. ربما من أجل ذلك تمسكت بي. أشعر أني أحمل في جيناتي الوراثية بصمة مكارم الفوضوية وقدرتها على حفظ الاسرار. الآن أدرك ذلك بعد أكثر من ثلاثين سنة من مغادرتي لها. وأنا افتقد جدا أنابيلا، ربما مكارم اصابها الحزن لرحيلي، وربما شعرت بالحرية أكثر مذ غادرتها. ليتني استطيع معرفة ما اصابها بعد أن غادرتها. ليتنا نستطيع رؤية الماضي افتراضيا كما نرى بعضنا بعضا الآن عبر كاميرا خليوية. أليس الزمن قادرا على ان يسخر لنا مثل ذلك؟

أعترف بأني أحدثك عن مكارم كثيراً. لكن أنا نفسي أستغرب من كل هذا الغضب الذي أشعر به نحوها الآن اكثر من ذي قبل وأنا الذي تركها منذ أكثر من ثلاثين سنة بقليل. هي في رأسي كلما حاولت أن أشرح لك حكايتي ربما تستطيع مسامحتي. بعد أن التقينا هنا في ايطاليا. أليست غريبة هذه الدنيا لأجدك هنا في لودي شمال ايطاليا التابعة لإقليم لومباردي. فوجئت بك عربيا مع أطباء بلا حدود يا مكسيم . كوفيد_19 او كورونا فالموت واحد ولا أظن اني سأنجو من هذا...

الحياة تستحق الكثير من الاهتمام يا مكسيم . ربما كنت طفيلياً على جدتي مكارم فأزعجتها ابنتها عندما انجبتني وتركتني بين يديها. لأشعر بالإذلال مع حماري ناريش الحذر أكثر مني في هذه العجيبة التي عشتها، والحقيقة الأكبر أني أحترمه احتراما كبيرا، فبفضله انتقلت الى الكثير من القرى واستمتعت بالطبيعة وغاباتها في عكار. على ظهره شعرت أن امتطي الأيام التي تكشر عن أنيابها في وجهي أكثر من أن تبتسم. رغم أني كنت حينها كالاباطرة الذين يقاتلون صبي القش أتعرف من هو صبي القش؟. صبي في مسلسل وان بيس، أو الأحرى كفتى مذكرة الموت اتمنى كتابة اسم كل من يزعجني في هذه الحياة الداعرة. أتعرف أحب قضم أظافري وأحب الحفر كثيراً حتى كنت أحفر بالسبابة إبهامي ولهذا السبب تراه مشوها. وأحب الحفر تحت الصخور بعد أن اقلبها وأجد تحتها ما أجده من عقارب، وحيات ومسكن نمل، ونقود اثرية لا يهم عندما أحفر في مكان ما اشعر براحة. وعندما احفر بالسبابة إبهامي أشعر بالجوع. والألذ من كل

هذا هو نقطة من دمي في فنجان الشاي أو القهوة أو حتى شراب التوت الذي اعشقه.

كنا نلتقي براعيات أبقار في الحقول ثرثارات تافهات وسخيفات جدا. احداهن كانت تسألني!.

- أذناك أطول، أم أذنا حمارك؟.

- أذناك الأطول من أذني حماري.

- لسانك طويل يحتاج لقص يا أهبل

كنت أتمنى قطع لسانها. لكن فضلت الصمت بينما ناريش كان ينهق. نمامات سيئات مضجرات استطعت في رحلاتي مع ناريش أن اتعلم الصبر والتفاني في خدمة نفسي كي استطيع البقاء مع مكارم واسترضائها. حاولت استفزازها مرارا لأنبش ماضيها لكشف سيرة ابي أو أمي لكن فشلت. جوابها دائما

- اسكت يا ابن الريسة.

- يا ستي أمي كانت من الرياس مثل نعمة؟ يعني بتحمل شوال فيه بضاعة وبتبرم تبيع بالبيوت؟.

- ناريش بيفهم اكتر منك يا ستي، هس ما تحرك شفافك سكرهم نهائي.

فأصمت لكن أتخيل أمي تشبه نعمة التي ترتدي فستانا طويلا تجرجره. تعلق أطرافه أحيانا بدبوس كبير؛ لكنها تبتسم عندما تراني وأعشق ابتسامتها ونقوشها التي على يديها. سألتها مرة أنت من الرياس الذين يأتون ويسكنون الخيام قرب بحيرة الكواشرة؟.

– هس أسكت ما بخصك يا ولد.

أغضب وأثور وأشعر أن هس ترافقني كلما سألت أحدا شيئا، حتى أن صادفت أحدا بين البيوت في هذه القرية التي لا أعرف من أسماها" السن"، ايمكن لانها تشبه السن في الفم. فإن رأيتها يوما ستشعر كانها كومة في قبضة الطبيعة. وكأنها فعلا كالسن الوحيدة في مغارة طبيعية. قرية من بيوت قليلة نعيش كالاغراب في بيت على كتفها الأيسر. بيت حجري بين الفينة والفينة يحتاج الى ترتيب الحجارة التي كانت تقع بعد كل عاصفة.

الفصل الثاني

إن ما عشته متنقلا بين أمكنة وأمكنة رسخت هذا اليقين في نفسي يا مكسيم. ذلك أن عمري الآن من عمر شيخوخة جدتي مكارم حين غادرتها، وهي في الستين تقريباً. كنت أتمنى أن لا أعيش أكثر من ستين عاماً حيث يهبط المرء الى الحضيض ويصبح بالثمانين في أرذل العمر.

الحمقى فقط هم من يتمنون طول العمر ورؤوسهم اشتعلت شيباً. فكيف تكون الشمطاء مكارم وهي الآن طاعنة في السن جداً او ربما ماتت، لكن لا اظن ابدا دهرية تلك الصخرة. أو كيف حال قلبها الجليدي بعد أن غادرتها. ربما تخطت التسعين لا أعرف عمرها الحقيقي مجرد تخمين. لا أقرباء لها، أيعقل أن جدي خطفها من أهلها وخافا من ذلك. أم أنها خرجت من مقبرة أثرية ووجدتني مرميا على تلك الصخور التي أحب القفز عليها؟

بين تكسير الفحم عند مكارم كريهة الرائحة لاذعة اللسان، التي أصبحت تبلغ من العمر عتيا في عيش فوضوي أدمنته معها. وتكسير الزجاج عند الشرسة أنابيلا التي أجد بين يديها متعتي الكبرى! نوبة تكسير مرايا يطول انتظاري لها. فأنا لست مرحاً بما يكفي لأتجنب إغاظتها برومانسية كاذبة تمنعها من عض لسانها، وهي تبرزه لي بقسوتها المعتادة من بين شفتيها المنتفختين تحت أرنبة أنفها التي ترتفع الى الأعلى عند غضبها. أو نوبات حك فروة رأسها ومؤخرتها. عكس احتفالية طقوس حب أعشقها، لا بل أدمنها من تلك الشيطانة التي تمتلك كل رغباتي بالنساء، لأنها تصاب بنوبة فجائية قد لا اكون مستعدا لها كما كنت أستعد لتكسير الفحم عند العجوز مكارم المدمنة على قرقشة الفحم

بين أضراسها والغريب أسنانها الناصعة البياض لم يسقط أي منها، وهي بعمر العجائز اللواتي يغضبن بسرعة عندما لا تجد المطحون من الفحم الجاف تبحث عن المنقوع منه في جرتها الحمراء. لا تثرثر، لا تناقش، تسب وتشتم ارسيس بيزيس، أموت واعرف ما معنى هذه الكلمات.

انفض عنا الجيران اكثر فأكثر فما عاد يروق لهن أن تقرأ فناجين القهوة. لأن خوفهن من أن تصيبهن عينها الحسود هو الفزع الأكبر منها. فانعزلنا في ذلك الوادي وكنت انا الطفيلي الوحيد العالق بها الى حين. امرأة لا يمكن استرضاؤها الا بمشحرة كبيرة. ولا تغفر بعد السباب والشتائم فتتحول شفتاها الى دائرة كبيرة مشحرة أخرى في وجه عجوز لا تتركها حتى ان تتنفس. هي أم أمك التي أنجبتك من جاءت بك الى الحياة وتركتني مع هذه المتيبسة المزمومة الشفاه.

– ما بدك تردي يا مكارم؟

– هيا. اذهب الى النوم لا اريد رؤيتك للصباح. أنت لا تساوي ربع مشحرة.

– لا يهمني كم أساوي عندك، يا همي.

– ملعون، ملعون أبن ملعون.

لعلك تتصور كيف عشت معها وأنا استحضر القليل منها. ربما أنا هو الشقي الفاسد في الحياة. لكني كنت أتمزق من شتمها لي ومن صمتها الذي يدوم أياما ان لم تغضب. لماذا على الإنسان أن يتحمل هذه المخلوقات التي تبدو

كشخصيات شيطانية خرجت من قصة مذكرة الموت التي شُغفت بها وأنا اتابعها على الانترنت .

الا يمكن استئصال شياطين الأرض الذين يتحركون لبث الأذية للاخرين؟ ومع ذلك وجدت نفسي شريراً كشيطان يسير خلف البيرتينو بسعادة كبرى. كما سار لايت خلف الكائن الغريب الذي ظهر له كحلم حقيقي يستطيع من خلاله تحقيق موت من يزعجه. هيوك صاحب المذكرة الذي يتسلى بها مع البشر ألا نعيش مثل هذه المغامرات في خيالنا. كم تمنيت موت جدتي مكارم التي تشبه هيوك في مسلسل مذكرة الموت.

قطعت شوطا كبيرا من الحياة برفقة البيرتينو ولم ابتعد عنه كثيراً لأنني لم ارغب بهجرانه. اعتدت على صمته الذي يغلب على كلامه وادرك مدى حبه لعمته برناديت التي يهتز لحمها حين تمشي، واستفقاده لها دائما كان يدهشني. رغم أنه كان يكلمها عبر الواتساب غالبا، فقد استطاع أن يراسلها ويشتري لها تلفونا خليويا من خلال دون ستيفانو صديقنا المخلص فعلا، وهو يحب الجلوس قربي دائماً حتى في السفينة التي هربنا فيها الى ايطاليا معه. أول مرة ركبت سفينة شعرت بمعدتي تتحرك وتريد الخروج من فمي حتى اني سمعت صوتها تقرقر كأركيلة دون ستيفانو، يومها استبد الغضب بي وكانت رائحة الأركيلة تغزو أنفي فأشعر اني سأتقيأ مجددا كلما أفرغت معدتي. بدأ وكأنه متعود على الجلوس في سفينة تتأرجح ويستطيع الجلوس ثابتا كأنه على كرسي في دكان

البير وهو بالكاد ينظر الي كأني غير موجود أمامه. شعرت بالخزي وغمغمات البير الماكرة تشعرني انه متضايق جدا مني.

لم أرغب بقطع علاقتي مع البيرتينو رغم شجارنا احيانا بسبب تهريب العملات الأثرية لكنه في الحقيقة كان خوفه مبررا في كل مرة. فمعه استطعت البقاء بعيداً عن مكارم كما أني بفضله جئت ايطاليا. أو الأصح بورغو فلينو قبل أن استقر في صقلية. راودتني أكثر من مرة فكرة أن اهجره وابتعد عنه لكني لم استطع. أحيانا يصيبني القلق عليه. اذ يغادر المنزل أياما ولا اعرف عنه شيئا رغم اننا نقطن في الحي نفسه قرب مطعم البيتزا حيث نجلس ساعات نتناول خلالها المعجنات. ويحدثني عن عمته وهو يقضي معها اغلب اوقاته على الواتساب.

– اتعرف بالأمس عمتي كانت موجوعة جدا يبدو قد عاودتها آلام ظهرها.

– هل سترسل لها الأموال كالعادة عبر ويسترن يونيون.

– مؤكد، هذه حبيبة قلبي، كم أشتاق للأكل من طبخها الذي افتقده.

– ألم تسألك عني؟

– ولماذا تسألني عنك؟ لتكون مفكر حالك عبدالمجيد مجذوب الذي تعشقه عمتي؟.

– ألو حياتي ، هههههه المسلسلات العربية كانت كالمدبلجة كساندرا والحب ونساء عكار.

– لو سمعتك برناديت لكسرت أسنانك مسلسلات عبدالمجيد مجذوب وهند ابي اللمع كمسلسل كساندرا يا أهبل. أكيد كساندرا ليست كأنابيلا. عمتي برناديت أمي التي ولدتني فحبها في قلبي دائما.

– هل ستتركني هنا في ايطاليا ، ألم نتعاهد على البقاء معا للأبد مثل عدنان وعبسي؟.

– الآن لست أنوي ذلك لكن مع الأيام ربما نعم.

ليتني كنت استطيع معرفة ان كانت مكارم ما زالت على قيد الحياة. أو أن اخبر البيرتينو عن جرة جدتي المملوءة بالعملات الأثرية. لكن خوفي أن تدرك المهروشة مكارم اني على قيد الحياة وتستطيع الوصول الى هنا. مكارم كالعفاريت التي تعتني بهم لا اعرف ولم افهم ما الذي كانت تفعله في طرابلس، وهي نادرا ما تغادر قرية السن. كما ان الكرات الصوف التي كانت تضع فيها العملات الأثرية كانت تنقص باستمرار. أليس من الممكن وجود مذكرة لمعرفة الأسرار كما مذكرة الموت التي حملها لايك وقضت عليه. أو مارد قمقم سندبادي يخبرني قصة حجارة بيت الرب، او بيت جعلوك وسر تلك المقابر فيها .

صدقني إني الآن أرى حياتي كما لم أرها من قبل، وهدفي الوحيد في هذه الحكاية التي ارويها لك هي جلاء الحقيقة التي نلهث لتحقيقها وما من حقيقة في الحياة. اذا يتبدد كل شيء سعيت له في الحياة وأنت تحتضر فتشعر انك ستخرج

من هذه المكلومة خاسراً. وأنا لا أميل للخسارة في الحياة. ما خسرته في الحياة أمي ومن ثم أنابيلا، أما الباقي فلا يستحق الحزن عليه. وإن كانت كاوتيكو تحفتي الأثرية اللؤلؤية التي هدهدتني في أحضانها كما لم تفعل مكارم ذلك. يعيش المرء من دون أب ربما لا يشعر بالأحتراق؛ لأن الرجل قاسي الطباع نوعا ما كما والد البيرتينو لكن المرأة رغم جنونها إلا أنها شيطانة الحياة التي تجعلك ترغب بها باستمرار.

استرديت حبي للحياة عندما عرفت أنابيلا، انها سيدة عظيمة آذيت شعورها لأني أخرق أو فشكول كما لقبتني " كاوتيكو" لا أحب ترتيب الأشياء في غرفة تحافظ عليها ولا احب الاستحمام كثيراً مثلها، أكره الاستحمام جدا لا أعرف من اخترع الصابون أو ذاك السائل الشبيه بسائل الجلي. او الجيل دوش أليس الاستحمام بصفوة الفحم المحترق هي الأقوى. القليل من الصفوة على ليفة الاستحمام وافرك بها جسمك تصبح لامعا كطنجرة بخار كاوتيكو.

مهما حاولت من قبل ان اتصنع اغاظة أنابيلا أفشل وأسبب لها الكآبة، لأنها تدرك حيلتي وتهجرني بعدها أياما اعتزل فيها كل شيء. فأنام كجبان حقيقي على كنبة قرب كلبي أو كلبها لا فرق، عزوز الذي يبسط ذراعيه ويضرب بذيله الأرض، وكأنه يراقبني كي لا أدخل خلسة الى سرير أنابيلا، وإن حاولت يعيدني مكسور الخاطر الى الكنبة. ويبقى على مقربة مني ولو حاولت الدخول الى الحمام فمن المؤكد سيتبعني. إلا أنني احبه فهو يشبه كلبي العكاري في الكثير من تصرفاته كأن يستقبلني وهو يمد ساقيه الأماميتين، ويضرب بذيله الارض

متراجعا إلى الخلف، كأنه يسجد لملك رآه. هل تتشابه الكلاب في العالم وتختلف أصناف البشر عن بعضها بعضا؟

تتملكني الكثير من الأفكار الغريبة بعد مشاهدة حلقات صبي القش اتمنى أن اكون مثله في الحياة. نتمنى الكثير ونحن الأبطال في الحياة التي تتغير كثيرا كل ثانية وتصيبنا بتغيرات لا يمكن ان نصدقها. البير لم يكن يستطيع الكلام دون خجل ونحن في عكار في عمر الطفولة والمراهقة، بينما هنا اصبح رجلا شرسا بعضلات لا يمكن مقاومتها. وبجرأة انا احسده عليها. كيف يمكن للزمن ان يتحكم بتغيير البشر الى هذه الدرجة. لماذا يموت البعض ويولد البعض؟. لماذا لم اولد كابن دون ستيفانو، أو كالامير تشارلز، أو كالبيرتينو ولي عمة تحبني وتهتم بي؟

كنت أشعر أحيانا أن كلب أنابيلا ينافسني على حبها أو أنه يغار عليها مني. يراودني هذا الشعور عندما يزمجر ، وهو يحدق بي كأني قطة يريد التخلص منها، ويا ويلي إن حاولت دخول غرفتها بعد أن تدرك حيلتي، وتعلن هجرانها مطولا. اذ يمسك بأسنانه أطراف بنطلوني وأحيانا يتمزق قليلا ولا يهدأ الا بعد أن اتمدد على الكنبة مصطنعا النوم، او أخرج وابقى خارجا على الشرفة، لكن عندما تأتي نوبتها عفوية من دون أن أفكر بها عن سابق اصرار وترصد تكون قوية ويصاحبها لذة جنونية أخرج منها كالذي صارع ذئبا أو خرج من حفرة ضيقة حاصرته فيها الحجارة المسننة، أو كأنني صارعت لبوة في قفص صغير، او بين أشجار العليق البري الذي كان يتدلى بكثرة على الأحجار السوداء قرب نبع

جعلوك، او بيت الرب، كما كانت تقول له نبيلة في عكار شمال لبنان. توت اشجار العليق البري هههه اليوم اسمه بلاك بيري والألذ هو ايرشمان سينغل مالت Irishman SingleMalt كوكتيل بلاك اللاذع الطعم ببساطة توت اسود والقليل من عصير الليمون والماء الفوار وثلاثة اضعاف من الجين وفي حفلات الهالوين عند البيرتينو المشروب بنكهة الزنجبيل والعنب والبلاك بيري. أحب المشروبات والعصائر لم أكن اعرف في عكار الا الميرندا وعندما اتخطى الحدود السورية بحثا عن نقود اثرية اشتري الماندارين. الشبيه بمشروب التيكي من نكهات الفواكه مع الكحول وعصير البرتقال، أو الاناناس والرمان او الغرينادين مع البلاك بيري ايضاً.

نعود لنبيلة فهي مخلوقة طيبة القلب طرية لينة مستسلمة. لها شفتان بطعم توت العليق البلاك بيري الذي كنا نقطفه عندما نلجأ الى بيت الرب في منجز عكار. كانت تحب أن تغرز اسنانها في كفي عندما تغضب او تخجل. أحببتها في ذلك الوقت الذي تجاوزت فيه معها طفولتي وشعرت بمتعة النساء وطيبتهن. لها عينان صافيتان كسماء بيت الرب في نبع جعلوك حيث انهمر الدم الأرجواني على مقابر الملوك عندما أغوتني فما تمالكت نفسي . لها يدان بيضاوان كاللؤلؤ على صدر أنابيلا. عاشقة اللؤلؤ الهيستيرية انابيلا.

كانت نبيلة ترتجف ارتجافا فظيعا يجعلها تكاد تنهار إن توقفنا أمام أحد من زائري مقام الرب فجأة. وهذا حدث مرتين فقط. وبشكل هيستيري عضت على

زندي . عندما نعيش حياة غريبة تذكرنا اللحظات الأخيرة فيها بأشياء لم يكن لها طعم في الماضي. لكن نتذكرها كأننا نعيشها من جديد.

كنا نلجأ الى مقام الرب كركن آدم وحواء عندما هبطا على الأرض. كانت تمسك بابهامي عندما نستلقي على العشب الرطب الممتد حتى حدود الحجارة الاثرية في ذلك المكان من أرض لا أشعر أني أنتمي اليها. يبدأ كل شيء بلحظة مجهولة لست مستعداً لها. فمسالك الحياة الوعرة تشبه طريق قرية السن، وأنا على ظهر ناريش. لم أكن مدفوعا بالرغبة بها عندما ضاجعتها، لكن شعرت فجأة بشيء يحرق دمي ويدفعني لالتهمها كما ألتهم توت العليق البري. ضحكاتها المجلجة في طبيعة مقام الربط صداها في مسمعي الآن.

أتعلم يا مكسيم أنت تذكرني بها كثيرا ، ربما لأنك من قرية البيرة تلك القرية التي لطالما زرتها لأشتري من دكان أحمد الحجة. ثمة سخرية في القدر لا نفهمها، لو أني ما غامرت مع البيرتينو ولم نتمنَ عيش مغامرات توم سوير أو السندباد. كان ابو البير يقف خلف النافذه في الدكان ينصت لأحاديثنا. كان يشعر أننا سنقوم بشيء ما. الا أنه لم يدرك أن للقدر سحره.

لم أستطع أن أصبح حتى رب عائلة. فالرجل الذي لا يصلح أن يكون رب عائلة عليه أن يستمتع بعدد النجوم وقراءة الطالع والاستجمام في بركة مليئة بالبط..ربما لا يمكننا أن نرسم مسير حياتنا ، فهو متقلب متغير ولا يمكن التكهن به. لكن يمكننا أن نحتفظ بالمعنى الإنساني الذي تتشكل منه أرواحنا بوعي هو درجة تقييمنا قبل الرحيل. الآن ادركت هذا وأنا اشعر اني لم اقبض على حفنة

من تبر في حياة لفظتني غريبا وستميتني غريبا ووحيداً، وربما سيخاف مني من سيدفنني كي لا اصيبه بعدوى الكورونا اللعينة.

كنا نسير معا بعد خروجنا من الماء البارد، فنتسلق التلال لنصل الى نبع جعلوك ونستلقي معا على مقابر الملوك الأثرية وأحيانا نلتصق ببعض إن اصابها الخوف الشديد عند احساسها أن احدا يقترب. وفي الشتاء كانت ندف الثلج تغطينا فننفضها ونبدأ بالتراشق الى أن نشعر بالتعب. فنعود الى بيوتنا وكل منا ارتوى من الآخر. والهم الأكبر الذي كان يشغلني هو فقدان نبيلة التي كانت بمنزلة لينا لعدنان. حقيقة هذا ما كان يشغل رأسي آنذاك رغم قساوة ساكنة الكهوف مكارم. كنت أرى نفسي ممددا معها على غيوم بيضاء تصعد بنا الى الأعلى عندما نكون على مقابر الملوك في ذلك الركن الذي مازال على عهدي به . فتشت عنه عبر محرك غوغل فوجدته قابعا افتراضيا على الإنترنت. بيت جعلوك لكنه في ويكيبيديا ايضا اسمه معبد نيمسيس إلهة الإنتقام. الدولاب المنقوش الذي سرقناه وتركناه في قرية عمار البيكات يبدو انه مازال موجوداً. الكلام عن معبد نيمسيس وحجارته في العم غوغل أصبح يمهد لمعرفته أكثر من ذي قبل.

الآن اغبط نفسي على تلك المرحلة العبيطة والمتوقفة هناك عند بيت جعلوك حيث مقابر الملوك الأثرية ونقوشهم الباقية رغم قوانين الطبيعة. إلا أنني كل مرة كنت اقصد فيها بيت جعلوك افتش على منقوشات جديدة لأفرح قلب مكارم.

– طلع آخر قرش بجيبتك وهاته.

– يا مكارم لا تهزي راسك ما لقيت اليوم ولا نكلة.

– يا كذاب يا منافق انت متل اليهود بتاكل وبتنكر لئيم مامنك أمل متل أبوك.

– هل تؤجلي المشحرة إن اعطيتك القطع ؟

–يا ابن الشراشيح يا معفن يا كذاب هات القطع.

وأكسب الرضا لا شيء أمتع من أن أرضي مكارم من دون مشحرة أعمل فيها لأسابيع. لك أن تتصور حياتي معها في تلك الأيام التي لا تشبه حياة اي بطل من أبطال الأنيمي التي أتابعها الآن . وإن بيس ذلك المسلسل الذي اشاهده منذ سنوات من دون خوف من ان تنقطع الكهرباء، أو من أن لا يتم عرض الحلقة. لو ولدت الآن في هذا الزمن الذي اصبح فيه كل شيء يمكن تحقيقه افتراضياً اليس افضل؟. لماذا يضعنا الله في المآسي لنكابد ونقع في مشقات حياتية؟. لا يهم كل هذا الآن فعند رحيلك تصبح كل الأشياء لا طعم لها حتى الدنيا تراها من بعيد وتتمنى ان تغلق نافذتك في وجهها.

لايتحرر الانسان من الماضي الا عندما يكتشف حقائق عن حياة جديدة .

منذ ثلاثة أيام كلمني البيرتينو وطلب مني كمية كبيرة من الفحم النشط الذي كنا نصنعه ونضع في داخله العملات الأثرية. يريد مني تسليمها له في قرية شامواه وهي بلدة أعشق السفر اليها؛ لأنها تذكرني بقريتي مسقط رأسي قرية السن في عكار شمال لبنان .قرية معزولة واقعة على المنحدرات الشديدة لوادي أوستا في شمال غرب ايطاليا، وهي القرية الوحيدة في البلاد التي لا يمكن الوصول

اليها بالسيارة. وترتبط الأحياء السبعة الصغيرة المكونة لقرية شامواه عبر ممرات وشوارع لا يمكن السير عليها الا بالأقدام أو الدراجات، وحتى الستينيات من القرن الماضي لم تكن السيارات محط اي اهتمام في هذه القرية، تشبه قرية السن رغم الفوارق بين حجم القريتين فالسن ترتفع عن سطح البحر أقل من شامواه التي رفض سكانها دخول السيارات اليها، بل استبدلوا ذلك بالتلفريك يُقال عنها لؤلؤة جبال الألب . والسن أيضا لؤلؤة شمال لبنان لكن لم يكتشفها أحد وغير موجودة على محرك غوغل .

كنت آنذاك اتنقل على البغال محملا بالفحم السنديانى الذي احتفظ به بعد كل مجمرة حطب مع جدتي مكارم التي كانت كالقردة لا تهدأ منذ الفجر ما بين عجن وتحضير الموقدة لصنع الأريش وبيعه او القشطة البلدية المحجوزة لفلان ولفلانة جدتي مثل ديك الماء الذي نصطاده في مواسم الصيد العكارية ، وأنا المسؤول عن تسليم انتاجها من اللبنة والجبن والاريش والقشطة، وحتى الفحم ومطحونه أواستبداله بالأرز والسكر والتمر والزبيب لبعض الدكاكين الصغيرة في الجوار كدكان أحمد الحجة في قرية البيرة التي تبعد ساعة على ظهر حماري الأسود ناريش .

لا تسألوني عن اسمه لأني حقيقة لا اعرف لماذا اطلقت عليه هذا الأسم ناريش. ربما لبشاعته ولسواده المختلط مع الأحمر الناري أو ربما لأنه ابن العفاريت أيضا. أنا وهو كنا عند مكارم بلا رغبة أو ارادة أشبه بقطعة فحم تركنها مكارم جانبا ، لأنها تعجبها لتكون في موقدها. أو لتطحنها وتجمعها في الأكواب

الفخارية. إنني مؤمن اليوم أن الانسان هو حيوان ناطق أدرك قيمة الحياة، فسعى نحوها كالذي يشق الطرقات الجديدة في هذا العالم .

لم استطع أن أبرهن لأحد أني موجود، وكأني لم أولد على هذه الأرض. لأكون صريحاً أكثر أشعر أني ابن عفريت فعلا شقي تعيس سقط في بيت مكارم التي أخفت أسرارها عني ، كأنها تشعر بالخزي والعار من ماضيها الذي لم يبقَ منه سواي. وأنا لين الطبع لا أغضب سريعاً مسالما الى درجة عشقي لصفعات أنابيلا. ولكن ذلك ليس ناشئا عن جبن أو استسلام، إنما هو تلذذ بالألم والقسوة التي اعتدت عليها عند مكارم، وقوتي لا تظهر إلا حين أكون بمزاج سيء وهذا نادرا ما يحدث. إلا إن صفعني رجل وهذا حدث مع البيرتينو عندما تركني أياما في شاحنة تنقل الشتول الى محمية بورجو فلينو. خارت قواي وبللت ثيابي أكثر من مرة ورائحة برازي نتنة كجيفة ميتة منذ اسابيع. فبدأ بصفعي كي اصحصح فثار جنوني وهاجمته فرمى بي في بركة الماء. مقرف البيرتينو عندما يغضب يجعلني اشعر بالتقيؤ منه. ليس بإمكانك نسيان الإصدقاء عندما تعيش معهم في الحياة اكثر مما تعيش مع نفسك.

– يا أهبل، كدت تقتلني ما بك.

– لا تقل أهبل يا مجنون ، كدت أموت ولا تريد مني أن أغضب، ما بك تتركني لأيام هنا.

– مجبر أخوك لا بطل، لا يجب أن يراك دون ستيفانو معي سيغضب ان راك وانت اصريت على المجيء معي.

– اكرهك واكره دون ستيفانو واكره نفسي. واكره الشتول والعملات الأثرية.

– اكره كما تشاء. المهم تم تسليم العملات لدون ستيفانو .

ما بين ناريش حرف النون الذي لا أنساه لأني تركت دروس القراءة والكتابة وحفظ السور القرآنية من عند الشيخ نظير بسب نون والقلم وما يسطرون التي لم أحفظ غيرها رغم عصا الرمان التي ما زالت اثارها على مؤخرتي بسبب فشلي في حفظ سورة القلم. الذي لم أمسكه بين أصابعي الا بعد معرفتي بأنبيلا ، فالقلم عند الشيخ نظير هو تلك الخشبة التي يدخلها الرصاص ونكتب به بينما القلم هو للتقليم ومعرفة كنه الأشياء وتصنيفها، وهذا ما سمعته من محمد شحرور وانا اتابع محاضراته على اليوتيوب. هناك العديد من معجبيه حول العالم وانا منهم. وأعرف أن مقولاته نابعة من فهمه للحياة التي خاضها عكس ما ابحرت انا فيه وهو حبي للعملات الأثرية وقوة احساسي بوجودها. تقول مكارم أنني زوهري وابن شيطان أكبر غوى ابنتها. ربما لديها الحق في ذلك . شيطاني الطالع وأستطيع الغوص تحت الماء من دون ان يعلمني أحد. الغوص في نبع جعلوك له طعم الاستكشاف الأثري تحت الماء. أما في ايطاليا فالغوص هو الهرب من مكان الى مكان من دون الأوراق اللازمة لذلك. كالذي حدث في محمية فللينو وبقائي بين الشتول التي جاءت من لبنان ولم افهم اهتمام البيرتينو الكبير بها، ولماذا ارادني معه من دون معرفة دون ستيفانو.

نبذتني أمي في العراء عندما ولدتني وماتت. كان الأجدر بها أن تقاوم لأبقى على صدرها. اعرف ستقول اني مجنون كافر ملحد. ربما ما تقوله صحيح لكن عندما تصارع الحياة تنتصر. وهي لم تصارعها استسلمت ليأس ربما أو هربت من لسان مكارم وتكشيرها. هذه المرأة تدفع من يعيش معها للانتحار، أو الهروب منها الى حيث لا يراها أبداً. أسف وحسرة على قول كل هذا لكني أضطررت لتركها في هدوء الطبيعة في قرية السن. وهي المهووسة بضرب مؤخرتي بقضيب الرمان حتى بعد أن كبرت. ربما أدمنت ذلك وكنت فعلا اثير غضبها لأستفزها على الضرب.

لا اعرف ما سر مؤخرتي والضرب عند البعض حتى تمنيت لو أني ولدت من دون مؤخرة. فالصفعات على مؤخرتي كانت تصيبني بخدر لذيذ من جهة، وتغيظني من جهة أخرى. إذ كانت تشعرني كأني ناريش رغم أنه لا يثور ولا يتمرد ولا يتألم ولا يتعذب. لم يختلف شيء بالنسبة لي رغم أني ادرك أنه كان يعاندني ولا يتمرد عندما يغرس رجليه في الأرض ولا يسير الا بعد عدة ضربات بقضيب الرمان. إلا أني تركت مكارم التي كانت تمسك أذني وتضرب مؤخرتي وتلعن أبي كأنه ابليس اللعين، وتلعن حظها في الحياة. لم تحسب قيمة مصالحها ومنافعها معي جيداً. وربما هذا صب في مصلحتي وأعده من قوانين الطبيعة والعدل المخفي تحت ستار القدر .

هجرتها من دون أسف، علي البقاء معها وبمعاناة شديدة انحصرت بين رغباتي ورغباتي بمعنى رغبتي بالفرار ورغبتي بقتلها. في يوم كانت تئن فيه من وجع

ضرسها من دون جدوى، وهي تنتظر الريس عثمان الى أن يأتي حاملا شنطته ليخلع لها ضرسها. فهي لا تكف عن التوجع والشكوى عندما يصيبها الألم بنوبة ضرس تغطيه بالتبغ بعد فرمه ناعما. فلكل داء دواء عند مكارم ، ولا عن صفع وجهها أو رمي الأشياء من حولها نحو باب كوخها الصامد رغم قصفها له عند الغضب.

لا يدرك الانسان تفاصيل الحياة التي مر بها الا بعد أن يبلغ من الوعي درجة كبيرة من العمق. ومرد ذلك أنه يجهل ما يخبىء له القدر وهو ملتصق بمكان واحد مدعيا الاستقرار. بينما عليه أن يشق الطرق الجديدة باستمرار. لكننا نميل نحو الكسل كما يميل ناريش نحو حمارة تمر بجانبه. ففي قرية السن وبعد آذان الظهر يموت كل شيء، فالكل في البيوت والسكون يستمر حتى آذان العصر بصوت الشيخ نظير من على سطح منزله. الكل في هذه القرية يحب الراحة والرخاء حتى مكارم ما بين الظهر والعصر تصبح حركتها بطيئة وتغط في نوم ساعة تقريبا، والغريب عندما تشخر تستفيق . ومن الممتع في تلك اللحظات تقطيع الحطب والاحساس بتحطيم وتقطيع وتكسير كل ما أراه أمامي إلا أنني كنت أكتفي بتقطيع الحطب لتجهيزه لمشحرة أكسب منها المال الوفير وهذا ما يسعد مكارم . ويسعدني أيضا لا أنكر ذلك .اذ يصبح كيسي عامرا واستطيع الحصول على الكثير من السكاكر.

وأن لفي هذا الكلام الذي أكتبه لك يا مكسيم أو يا مصطفى بعض اليقظة الشديدة التي لم أكن أمتلكها حينها؛ لأني ارى حياتي كشريط سينمائي قديم جدا

. لكنها في الحقيقة هي الوعي بالأحداث كلها التي جرت في حياتي . إلا أنها تضيء كل تفاصيلها مع مكارم وأنا في حالة من الجهد والاعياء الشديد. لكن صدقني أكتب لك ما أشعر به بجهد أبذله لتبقى هذه الكلمات هي حياتي التي عشتها. من دون أن أتنكر بظلي الذي تركته عند مكارم أو أن اكون نوريس لوتشيو .

لا تقل أني تافه سخيف. لأني أوقظ في نفسي أحساسا لا مثيل له وبحماسة الذي يستفيق من الموت المؤكد ، فيمرح وينتعش وينطلق الى الحياة مجدداً. اشعر بخفة عظيمة في جسدي. وكأنني سأعيش لمئة سنة وأكثر. انتشق الهواء رغم ما يدعونه الأطباء. ان كان هذا ما شعرت به أنابيلا قبل أن تغادرني ليكن عظمة ما انعم به الله على الفشكول الفقير.

أتصدق أنني بت الآن احب المشحّر أكثر من الفشكول وأكثر من نوريس. ثلاثة اسماء في الحياة كثيرة علي . نورس ونوريس وبين الفينة والفينة اشتاق لاسم المعفّر يا مشحر، يا معفر كان يجب على مكارم أن تزيد الأسماء وتناديني يا رفّيش يا عفّيش بما أنني من الرفّيشة في البحث عن عملات اثرية. ومن العفّيشة في العيش مع البيغ مام جدتي مكارم .

تعرفت على القبطان دون ستيفانو بينما كنت عند زبيدة خانم في قرية البيرة العكارية تلك المرأة المستقلة عن بيوت البكوات في قرية ليست باليعيدة عن قريتي مسيرة ساعة على ظهر ناريش، أو إن صح القول عن بيت هشام بك الذي أخافه عند وصولي لتلك البقعة التي تسكنها زبيدة خانم المنسية من زمن تراكم غباره

وانتهى في بيتها الحجري او الأثري. الغريب أن زبيدة خانم جدتها أيضا زبيدة خانم، ولم أفهم كيف تُسمى على اسم جدتها وهي يليق بها أن تُسمى لجين أو فردوس أو فضة. لأن جمالها الفردوسي يصيبني بالذهول. أنه ليشق على نفسي أن أتذكرها وأخبرك عنها. فهذا يسبب لي مضايقات كثيرة ولم يكن كذلك حينها.

للوهلة الأولى عندما التقيتها في منزلها القائم على منحدر التلة الأخيرة في القرية، حيث كانت تستفيد من الهواء العليل بعيداً عن البيوت الأخرى المشقوعة الحجارة، وكانها للدجاج، لأنها مربعة وبدون قرميد وعشوائية الاتجاهات، لكن من الممكن مراقبة كل شيء وانت جالس على مصطبتها الحجرية ذات العلو المميز ، كأن المصطبة عرش سبأ، ظننتها من البكوات او امرأة عثمانية نسي الأتراك ترحيلها الى بلدها الأم ، فلكنتها كانت غريبة على مسمعي مع عدم فهمي لكلمات كتعويذات سريالية. الا اني ما زلت اتذكر كلمتها المحببة لقلبي يا ملظلظ وهي تصفعني على مؤخرتي التي تهتز وتصيبني بقشعريرة تخدرني ، وتتركني في حالة ذهول وأنا أمتطي ناريشي الأسود حماري ورفيق دربي . قمت بعدة أمور أمكنني من خلالها أن أكسب محبتها وفوقها ليرات من النكل وحفنة من المعلل أو السكاكر وقبضة من الزبيب. وأحيانا علبة لبنة مدعبلة بالزيت. عالقة هي في تفكيري ايضا كم تمنيت أن تكون أمي.

الآن أتوق لرحلة مع ناريش الى قرية البيرة لأرى ذكرياتي على أرض واقع غادرته بمحض ارادتي ، ولكن بغفلة مني او من قدري الذي رسم لي كل شيء. وما مجموع حياتي الا رغبات حصلت عليها كما سكاكر زبيدة خانم.

الآن أرغب العيش قربك بغية أن أرضي قدري أو تلك القوى النائمة بين ثنايا النفس التي تتمنى العودة الى أحضان أنابيلا المثيرة جداً. كم أشتهي عنقها ووضع قبضتي عليه لتصيح بوجهي مجدداً وتفلت من بين يدي كطفلة مشيطنة كما تقول اليسا في أغنيتها لو ما تجي " رجعتني للولدني طفلة صغيرة مشيطنة عالارض عم تركض حفى " فعلا أشتهي الحفى والمشي على حجارة بيت الرب في منجز لأشعر بحرارتها او برودتها وقوتها عندما كنت ألحق بنبيلة واجري خلفها لألتقطها بعد أن تنتشل قدميها من ماء النبع .

– يا آلهتي نيمسيس الصغيرة.

– هل رأيت جندل الناطور ؟.

– ليس هنا يا جبانة، لن يرانا أحد هنا إلا الموتى تحت الأرض.

– آه معك حق. لماذا وضعوه حارسا على قبور فارغة ؟.

– ربما يخافون من أن يستيقظوا.

– يا إلهي.. مرعب هنا.

عندما لا أجد نبيلة في قرية البيرة . أتوجه الى بيت زبيدة خانم الهادئة والمعتزلة غالبا للناس الذين لا تلتقي بهم الا يوما واحدا في الأسبوع. كنت أشعر بنوع من اللذة الخفية في لقائها، وكأني أسافر لألتقي أمي من الجهة الأخرى من العالم في يومها المفتوح. كنت مقتنعا أني لست كريها كما أشعر، وأنا في

بيت مكارم أشعر بلذة اليأس وبمشاعر الألم وأنا جاد بهذا . الآن في وسعي معرفة ما كنت أشعر به وأنا في حالة من التذبذب بين الحب والكره لامرأة توارب في كل شيء، وهذا ما كان يفاقم ألمي حيث كنت في خم مكارم. كانت زبيدة خانم تقول دائما :

– راقتني الدنيا بعد أن ركلت الماضي. الا أنني كسرت وانكسرت وبات الحاضر الأعرج محتاجا لعكازتي أكثر مني.

– كيف يحتاج لعكازتك؟

– عندما تكبر تدرك معنى كلامي.

أدركت معنى كلامها بعد أن كسرت وانكسرت وبات الماضي أمامي مفتوحا على مصراعيه وأنت قربي يا مكسيم .

العودة الى أنابيلا ذات الشفاه النارية متأخرا ليلة ونصف يوم أشبه بالأنتحار. لكنه يعني ليلة خرافية مجنونة تصب فيها جام غضبها على جسدي وتسلبني الروح أياما ، وكأني منتش ماريغواني عتيق. أحب ضربها الهستيري لي والقشعريرة التي تسري في عمق روحي، وكأنها الفحم في مشحرة جسدي الذي يشتعل من ضربها العشوائي، وغالبا مؤخرتي وظهري هي أوسع الأماكن التي تتلقى ضربات أنابيلا بكفوفها الجلدية الطويلة المركونة على الأريكة مدللة جاهزة. لتكون أداة الضرب السريعة، وبعدها كأني خرجت من فرن للشواء أو من مجمرة متحولا الى فحم سيشتعل من جديد. فتقلبني كالرغيف الساخن وتتلذذ بي، وكأنها

تزيل عني اللون الوردي، كما أزيل اللون الأسود عن أصابعي من فحم نشط تعلمت صنعه من مكارم بعد أن أنهيت توزيعه بربح يكفيني لأشتري لها الصمغ والألوان بعد هدوء العاصفة التي تجتاحها . وعندما تصبح لذة المتعة مع الآخر مطلب الإنسان تصبح الدنيا ملعبا يتسع رويداً رويداً.

– أحبك يا معشوقتي يا متعتي

– هل تقصد أني آلهتك التي تركتها في لبنان.

– تلك آلهة الحجارة السوداء أنت آلهة ايطالية تقيدني وتعذبني وتقدمني لنذورها يا معذبتي.

– غني لي مع كلود برازوتي أحبيني.

– أغني لك مع قرود السود المهم أحبيني.

– أحبك يا قردي الصغير . نحلق معا في مواجهة الإعصار، AMAMI

أوضحت لها أكثر من مرة أني لا أستطيع العيش مع سواها فانفاسها المعطرة لذتي ولهاثها عند المضاجعة في رأسي. فأنا ذلك الفتى الذي يصارع وجوده مع الطبيعة التي تقذف بي من مكان الى آخر وكأنها تهزأ مني. فالأحساس بوجودها الدائم معي يجعلني أنسى عودتي إلى مكارم التي أحسدها على كل شيء . أمرأة لم يعزها شيء في الحياة حتى قمل الرأس يهرب منها. كان يغزو رأسي ويترك رأسها مرتاحاً. فتجبرني على مسح شعري بالمازوت فيهرب مني حتى ناريش

وكلبي عزوز رغم أنه يحك جلده باستمرار اكثر مني ويمتلىء بالطبوع الذي يمتص من دمه وبالبراغيث، ومع ذلك لا تهتم له مكارم وتفركه بالمازوت كما تفركني. لديها الاستعداد الدائم لإزعاجي كأحمق غبي. بل كأبله ولد من شجرة.

لا تحسن مكارم التعاطي مع زوارها الا إن شعرت أنها طبيبة بوصفاتها الفحمية. فالفحم النشط عندها تختلف وصفاته من تسمم لمغص لسوى ذلك . عجوز مستقرة آمنة راضية مرضية تترك باب بيتها مفتوحا لاشيء تخاف عليه، والويل لمن يزعجها ترد الشر بشر أكبر منه. حتى أني لست كحماري ناريش الذي لا يتوقف عند أي شارة حمراء، كما أفعل الان وأنا مسافر الى شامواه . قد أكون غير حائز على شهادة ميلاد حقيقية في إيطالية لكن نوريس ولد في تركيا وهاجرالى ايطاليا. ولأكون صريحاً أكثر لم أكن قد تجاوزت الخمسين ولم أندم على شيء قبل الخمسين هذه التي أحاول أن اواسي حالي بها الآن وأنا اسمع أغنية أنابيلا المفضلة AMAMI لكلود برازوتي وأغنيتي المفضلة FELICITA لألبانو ورومانيا الثنائي. لا تسألني عن أغنية عربية أحبها لأنها "ده جوزي وانا حرة بيه، اغسله واكويه" التي كنت اسمعها من نوافذ بيوت القرى وأنا على ظهر حماري ناريش.

أمضيت عشر سنوات منهم مع أنابيلا التي لم تستطع يوما مناداتي نورسا باسم طائر مجنون مختل مثلي. تعلمت هنا أن الحياة أكثر بساطة وجمالا وشبيهة جدا بقرية السن التي ولدت فيها من دون أن أعرف ملامح أمي وقد درج الجميع على مناداتي في قرية السن يا ابن مكارم . ولن أقبل اليوم أن أسكن قصرا من

الكريستال في هذه القرية التي يزيد عدد المشاحر فيها على بيوتها. والفحم فيها يصبح كالذخيرة أمام كل بيت . ربما اصبحت طرقاتها معبدة، وربما دخلتها السيارات. لكنها ستظل قرية الفحم النشطة بتصنيعه؛ لأني أظن ان من ورث هذه الصناعة لا يمكن أن ينساها. والمشاحر في قرية السن كانت كالمداخن في مدينة بورجو فلينو الايطالية.

كانت انابيلا تضحك بنوبة هيستيرية بعد أن تنهي لوحتها الزجاجية أكثر مما ينبغي. وتقبلني بجنون وأنا بين فخذيها كطفل صغير تحتضنه أمه.

– هل خفت حبيبي؟.

– انقطع قلبي يا مجنونة خفت من أن تجرحي نفسك .

– تخاف من الدم وأنت تشرب دمك عندما تغضب؟

– لا أخاف عليك، أنت الوحيدة لي في هذا العالم .

تعض على شفتها كالعادة، فأندهش وهي في قمة جمالها وشبابها أشبه بزهرة فم السمكة بلونها الأبيض والزهري. كنت أزرعها حول بيت مكارم بكثرة. كان ينبغي فعلا أن التقي أنابيلا في الحياة. رغم غرابة الأقدار التي تمد لنا خطوطها كما يمد ابن دون ستيفانو خطوط لوحته .

مكارم التي أسمع صوتها الآن في رأسي وهي تصرخ بي يا ابن العفاريت اين أنت؟ هذه العجوز لا يمكن لها أن تتطور في يوم من الأيام، ولا أن تهدأ منذ

الفجر وحتى الليل، كنت أشعر بحركتها من حولي فإن سألتني لم اتكلم عنها كثيراً، قلت لأني أرى كل ذلك يمر أمامي كمشاهد متتابعة استرسل معها لأرصد أحداث حياتي التي أوشكت أن تنتهي. وقد أردت أن أجبر نفسي على الكتابة لك، ربما تجد شيئا لم أجده أنا في حياة تألمت وتعذبت فيها. لكن أؤكد لك أني وجدت فيها الكثير من المتعة ولو لم أهرب من قرية السن العكارية وأنا أخرج لساني لها كما يفعل توم سوير. لكنت من الاموات قبل ان اخوض كل هذا العمر الذي جعلني اتمنى في نهايته قطع لساني. والعودة الى القصر الكريستالي أو قرية العفاريت سمها ما شئت . لكنها قطعة من الجنة بين الجبال العالية . كأنها الفحم النشط في كوب ماء بارد. فضربات القدر لم تصبني بالاهانة انما اصابتني بالاستغراب من ردات فعلي الباردة نحو اي شخص اهانني. الا أنني كنت اجرح اصبعي ليسيل الدم في فنجان قهوتي، فاشربه وارتاح ويعود الهدوء الى شراييني. ذلك الهدوء الساكن الذي يبحث عنه المدمن . ليتني لم اكن يوما الا نورساً يطير حراً في فضاء مفتوح الى ما لا نهاية.

منذ أصبحت في الأربعين من عمري أصبحت مكارم كلوحة من صنع انابيلا أقف أمامها مدهوشا وفي نفسي كل تلك الرغبات المستقرة في عمق نفسي ولم تخرج . لم أفهم خشونتها وقساوتها وما الهدف من وجودي معها حتى حين. بدقة أكثر كانت ملامحها رجولية لو أنها من دون المنديل الذي تربطه على رأسها لكانت أشبه بعجوز كالثور العاجز يقطن بين الدواب او في مطحنة للقمح حتى صوتها يشبه صوت الجاروش الذي تطحن به القمح لتحفظه من غدر الزمن كما

تقول. ألم يغدر بها الزمن كما غدر بي وجمعني بها من دون أم وأب؟ وماذا سأتوقع من هذه العجوز التي ربتني من دون كلل من الشتائم ، وأنا متمسك بالعيش معها، كما كان يتمسك ناريش بالعيش معي؟

أظن أن ناريش رافقه الحظ في الحياة أكثر مني ومع ذلك هجرته وتركت لبنان كله في شهر شباط عام 1994. او الأحرى يوم تفجير كنيسة سيدة النجاة حيث عم الحزن في القبيات ولم ينتبه أحد لمغادرة البير دكانه ، فالكل أغلق ابوابه ودكاكينه وهو شهر القطط ايضا ، فمواء القطط يغضب مكارم فتضربهم بالحجارة ، ويا ويلهم أن شاهدتهم يتزاوجون. يزداد حجم شفتها السفلى، فتتدلى أكثر وتهتز كحبل الغسيل في شهر كانوني. كنت أسترق النظر اليها خلسة والهواء يصفق بأوراق التين اليابس والغار الذي تعلقه مكارم عند مدخل بيتها كأجراس ذات حفيف أسمعه الان بشكل اقوى وباشتياق غريب. بل كأنه أجراس مملكة بيت جعلوك حيث كنت ألتقي نبيلة حسين حسين جواد. إن بيت جعلوك كان الأفضل بالنسبة لي. فهو آمن وهادىء وبعيد عن أعين الآخرين. واليوم أتساءل لو بقيت في القرية ولم أغادرها منذ ثلاثين سنة ما الذي كنت سأصيره؟ خبير مشاحر ؟ أم جنديا كما هو حال الكثر من ابناء القرى في عكار؟ أم جالسا في دكاني أبيع الفحم ؟ ربما لا شيء، مخبول القرية .

لا أعرف إن كان هذا هو الوقت المناسب للحديث عن مكارم وضربها الدائم لي على مؤخرتي. فحين أصحو ليلا وأجد أنابيلا قربي أشعر كأني أعيش حياة أخرى لا وجود لنورس فيها . نورس المأساة الكبرى في حياتي. أما نوريس فهو

معشوق أنابيلا الذي لا يتحاشاها أبداً وهي تضرب بحماسة كبرى تجعلني أشعر بوجودي، فأصمت الى أن تنتهي لافترسها كريح تهب على حقل قمح أخضر ولا أستفيق الا عندما أصل الى الزمردة المستقرة في سرتها ، كأنها مولودة بسرة زمردية، فبطنها كصحن قشطة مكارم مع سكر النبات المطحون، فأنا فتاها الذي يتلقى ضربها بلذة بعد استفزازها بتهور كبير ومن ثم أمسك برسغها لأشعر بنبضها وجماله الموصول الى قلبي .

لكني بقيت على قيد الحياة معها وهذا سر وجودي مع أنابيلا التي لم تجهر رسميا بعلاقتنا يوما ما ، ولم تعفني من قضاء بقية حياتي بعيداً عنها. ولم أهب لتركها رغم قساوتها وأنانيتها على غرار مكارم . ولاننا لا نصادف الكثير من النساء اللواتي نشعر معهن براحة كبيرة جنسياً. أما تلك التي تتقلب تحتك كحوت ميت، فتلك يجب أن تخونها او تهجرها على غير رجعة كما فعلت مع نبيلة. الحب سلوك وتفاعل. الحب تماسك يتفنن فيه كل من الشريكين في التلذذ الجنسي أي غباء من اي منهما يفرط العقد. ربما تهز رأسك مستغربا الآن؟ وربما تحتقرني لأني أكتب لك سخافاتي ؟ لكن لن أعتذر لك عما فعلته لألتمس الرضا، فأنا راحل عن فانية أختزنت فيها قدرا كافيا من ذكريات أراها الآن أمامي حقيقة تتجلى . ليت القدر فتح أمامي ما فتحه أمامك رغم اني أحب تفاصيل حياتي بمرها وحلوها وليتني أبقى فيها للأبد.

لكن الا يكذب الانسان عند الحديث عن نفسه ؟ إنني موقن أنك لو سألت مكارم عن حياتها لحدثتك عن ألمها من ابن ابنتها التي تزوجت بابن العفاريت

او ابن الريسة بالنسبة لها الكل ابناء الرياس لا اعرف لماذا هذه النقمة على الرياس. أيعقل أن أكون ابن الريس عثمان وهي تكذب؟. ولو سألت نبيلة لكنت أنا ابن حرام ضحك عليها وتركها حاملا بطفله ورحل. ولو سألت أنابيلا لكنت الرجل الرخو الذي يتحمل صفعاتها ويرضى بجنونها بينما لا يقبل ذلك اي رجل سواي. وأنا من اهتم بمصالحها طوال حياتها في سبيل حبي الكبير لها. كانت تخشى انسحابي من حياتها؛ لأني خادمها الأمين أكثر من أن اكرهها . ماكرة خبيثة لكني عشقتها وأعشقها وسأعشقها دائما . تصور معي امرأة هادئة وادعة مسالمة كيف اعيش معها حياتي؟ سأكون كالاموات فعلا.

مضحك القدر ومضحكة الأسماء التي تتغير من لهجة للهجة. الا انني مع نوريس عشت أجمل حياتي، فهذه الياء جعلتني امتلك حظا اضافيا مع انابيلا أنانية الطبع قوية الصفعات الى درجة إدماني لها. رغم أني اؤمن جيداً ان حظي في الحياة سيء، وطالعي عفريتي بامتياز. ما رسخ في ذهني كل هذه السنوات يشعرني بحسرة ولوعة ولو أردت أن اتوسل بأحد في حياتي ما توسلت الا بنبيلة. ليس لأنك تنتمي لها أكثر مما تنتمي لي ، ولكن الحظ أسعفها بعد أن غادرتها . يبدو أني كنت نحسا عليها وبرحيلي فُتّحت لها ابواب الحظ كنت دائما تظن أن الله معها. لكن الله كان معي أنا ولفترة طويلة من حياتي لم أشعر انه معي ولكن بعد فيروس كورونا وبقائي حيا حتى الآن أيقنت أنه معي. ربما لو عشت مع امي وابي لكانت حياتي قاتلة وروتينية وما من احداث شيقة فيها. لا نستطيع العيش بحرية كبرى كما نحب ونرضى، ولكننا نمضي الى آخر الحبل المربوطين

به لنحاول العودة من جديد، ولكن يستعصي ذلك لطول الحبل المربوطين به. لا أخشى قول الحقيقة بعد كل ما مررت به لكن أخشى أن أموت وكلماتي هذه لا تصلك كما ينبغي على أمل أن تصلك هذه الكلمات على الواتساب خاصتك. أو حتى أن تقرأها بعد رحيلي يا مكسيم.

يقيناً لا مكان للفشكول الذي أتحاشى التفكير فيه أو نبشه في ذاكرتي عندما أحدق بأنابيلا، وهي مسترخية على طاولة المطبخ بعد معركة حامية الوطيس، كأنها وليمة عشاء لعشاق لحوم البشر . طعمها اللذيذ في أنفاسي لا يزول، وحين تمتطيني ازداد رجولة، وثمة شيء يجعلني أشعر كأني جدتي مكارم هذه المرأة التي حفرت وجودها في ذاكرتي والتي تأبى قتلها ونفيها من الدنيا. كانت تتركني عاريا في قبوها الحجري حتى تنشف ثيابي عندما تغسلها ولا تسمح لي بارتداء البنطلون الجينزي الذي اعطاني اياه البيرتينو يوم عيد السيدة. تحدق بي كلما مرت وكأني ارتكبت حماقة لا تغتفر ان اتسخت ثيابي.

كم كان يصعب علي أن أنظر في عينيها مباشرة. فالنظر في عيني ناريش كان يشعرني بأني ظله في الحياة. أما مكارم كنت اهرب من التحديق في وجهها. واتساءل اليوم لماذا يهرب الانسان من التحديق بوجه انسان يعيش معه عمراً طويلا. واقول في نفسي ربما لأنه يرى فيه إحباطا وتقصيراً وخيبة وقلة قيمة وعاطفة جافة وعبئا ثقيلا .

ربما اشعر بكل ذلك الآن لإني تحررت من انابيلا ومن مكارم وناريش وكل ما قيدني في الحياة. بالأصح بكل الذي قيدت نفسي فيه في هذه القصيرة الهمجية

التي نخدع فيها انفسنا ونقيد فيها انفسنا مع الاخرين . رغم متعتي مع انابيلا إلا أني مع كاوتيكو استريح واتنفس ويزداد عمري بل يتوقف الزمن عندها. تحتضنني بحنان غريب ما احسست به مع اي امرأة اخرى.

أنا وناريش توأم لم تلعقنا أمنا لتنظيف جسمنا. لكن كانت تلعقني أنابيلا كما كنت ألعق ملعقة مكارم الخشبية بعد وليمة الأرز بالحليب المعطر بنكهة الماء زهر المعتق في يوم صيفي حار تخاف منه مكارم . لأن الأكل يفسد بسرعة، فتطعمني ما يتبقى كي لا ترميه لناريش او لدجاجتها، او حتى قططها الكريهة التي لا ترحمها في شهر شباط.

– لا تلعق الكفكير متل القطط يا مجعدن.

– أحب ما يلتصق بالطنجرة وبالكفكير . لأنه معسل ولزج أكتر.

– مجعدن لو بدك تاكل قنطار.

– مجعدن مجعدن المهم الرز. بحليب من ايدك يا مكارم شيء لا يتكرر كتيرا.

كأنها تصاب بغيرة قاتلة من نفسها. فاذهب للنوم بعدها، اتفادى النهوض وأكمل ادعائي بالنوم كي لا تطلب مني شيئا في عتمة لم أحبها يوما. وانا اكتب لك عن هذا اشعر بغباء شديد بل فظيع، لأني اتساءل اليوم. لماذا كنت افعل هذا بينما كان يمكنني النوم في مزرب ناريش ألم يكن ارحم لي ولها ؟ ما الفرق بين مزرب عشت فيه من حجارة وسقف من طين ومن مزرب بسقف من خشب؟.

لعنة مكارم وفحمها بعثرت أحلامي وجعلتني هارباً من كل شيء دائما. لكن لا يمكن نسيان ظهر ناريش حين كنت أتمايل كالمخمور على طريق حجري نزولا، أو صعودا متنقلا من بلدة لبلدة لأبيع الفحم أو استبدله كنت أشبه أنابيلا وهي تعتليني مخمورة من لذة تجعلها تلوح يمينا وشمالا. فأشعر كناريش وهي تمتطيني مثل فارسة على جواد يحتاج لترويض او على حماري الذي اضطر الى وخزه بحذاء خشن من الكاوتشوك وهو يبطىء بمشيه، ونحن في رحلة البيع والشراء بين قرية السن والقرى الأخرى.

لكني كالحمار في هذه الحياة التي تسخر مني. فأنا محكوم بالمحو لا أنا حي أرزق ولا أنا ميت فأحيا. أنا كالجن في فخارة تنضح بما فيها. فالعمر ما زال يلاحقني ويطاردني بلا هوادة وعزرائيل ينتظر مني الوصول للنهاية ربما يقرأ ما اكتبه لك ويشق عليه قبض روحي قبل أن انهي ما أريد قوله لك. وربما يريد أن أنهي ما أكتبه لك فأستحق أن يكافئني ويتركني حتى أتذوق كرم نفسك وجودة طباعك ورقتك التي اثق بها. وقبل كل شيء غفرانك. فهل أنا غبي ثقيل الظل برأيك؟

كنت كالمتزعم قبيلة من الجن أحادثهم ويحادثونني طيلة الطريق التي اسلكها ذهاباً وايابا وعندما أصل الى بحيرة الكواشرة وهي على بعد عدة قرى من قرية السن. أقف لأرى نفسي على وجه الماء الذي يعكس في لحظات ما قبل الضحى جمال طيور البط ، ووجهي بينهم كلوحة تظهر على مياه ملساء. فبعد خروجي

من قرية السن المنعزلة عن العالم، ونحن في التسعينيات من زمن لم يمنح قريتنا اي طريق مفروش بالزفت. اذ أغلب القرى يمكن أن يصل اليها البعض من خلال السيارة الا قريتي التي تقع في زاوية غير مرئية، وكأنها قرية للجن في عكار لم يرها لا زعيم ولا نائب، ولا وزير، ولم يحاول أحد أن يمد لها يد المساعدة من طرقات وغيرها . ومع ذلك نشأت فيها كقطعة فحم قوية من سنديان طمرته مكارم في مشحرة تشتعل أياما. ليتكون ويصبح قادراً على مقاومة النار قبل أن يصبح رمادا.

لم أخضع في حياتي الا لامرأتين فقط مكارم التي أفتقدها اليوم بعد مرور كل هذه السنين، وأنابيلا التي كانت تنتظرني أو أنابيلا التي انتظر نوبة غضبها وأنا منهك من زمن يمضي بسرعة البرق، وكأني ولدت بالامس في حضن أنابيلا . وهذا الشيء المهم والرئيس بالنسبة لي. اذ لم أولد لأكون رب عائلة ولا أحب انجاب الأطفال ولا أريد التفكير بأن أكون ابا لأحد. لا بد للمرء أن يعيش في الحياة مستقلا عن المسؤوليات الكبرى، كالاهتمام بالاطفال وتربيتهم وهو لا يعلم من أمه وأبيه. كل مرة أجد نفسي فيها أمام قوانين الطبيعة التي رمت بي في أحضان مكارم أشكر الرب الإله على رميه بي بين أحضان انابيلا وغضبها الذي يخضع للكثير من القوانين النفسية التي لا شأن لي بتحليلها الآن...

كي أتكلم عن نفسي وأحكي لك حكايتي هذا يعني أني سأغادر هذه المرة من غير عودة، ولست متأسفا على أحلامي التي كنت أرسمها مع نبيلة في منجز

عند حجارة الآلهة قرب مدفن الملك المغطى بأشجار الدفلة، ولا على حماري ناريش الأسود الناري الذي كنت استغرق بالجلوس على ظهره يوما كاملا، وهو يتنقل بي بين المناطق المكسوة بالأشجار تارة، وبين البيوت التي تجاورها حقول القمح تارة أخرى . إلا أني كنت أمرض جداً بعد كل عودة من بيع الفحم وأتقيأ من ضربات الشمس، وارتعش أكثر من ضربات مكارم التي تتمتم وتلعن أبي الذي لم أعرف ملامحه نهائيا حين أتقيأ على أرض بيت أشبه بمسكن العفاريت الرمادي، وأنا أشعر بثقل في جسدي كله وحرارة أشد من حرارة الصيف قبل مجيء عيد الصليب الذي تنتظره مكارم انتظار نبيلة لعيد الفطر كي تراني في بيت جعلوك، على كل حال كنت أشفى من دون دواء أو طبيب وهذا كان حال ابناء القرية الا من كان يؤمن منهم بفحم مكارم المطحون. ما من احد منهم كان يكلمني وان التقيت بأحد منهم في مكان، كان يصاب بالذعر، وكأنه رأى الشيطان الأبيض برصيصا الذي تخافه أنابيلا .

لم أفهم سر غضب مكارم عندما أتقيأ على أرض قصر غرناطة وأرض بيتها التي كانت من الاسمنت الرصاصي اللون، الذي كانت خشونته أسوأ من كف مكارم حين تشد أذني وتصيح كديك في وجهي يا ابن العفاريت. ربما فعلا ابي من العفاريت، فما من صورة جمعت ابي مع أمي ولا حتى من هوية له مع مكارم. كل الذي أعرفه عن والدي أنه العفريت الذي اغوى ابنتها ابن الشراشيح وابن الحرام الخ ... كأنها تظن نفسها الملكة اليزابيت وربما أفضل منها لو عرفتها حقيقة. حتى التلفاز لم يكن في كوخها ولا حتى راديو ، والغريب أني لم أسمعها

تغني يوما لأم كلثوم كما كانت تفعل زبيدة خانم. كما كانت تتحاشى الكلام عن ابنتها أو زوجها. اتساءل اليوم كيف يمكن أن يكون شكل جدي؟ كيف استطاع تقبيلها هذه المتوحشة؟ هل يعقل أنه يشبه قاتل حمزة عم الرسول؟.

– مكارم كيف هو شكل جدي؟ من يشبه. هل يشبه الحاج علوان؟.

– متل الفحمة السودا كان حسين.

– جدي حسين وانا نورس ليش.

– اسأل الجحش ابوك هو جحش وابنو نورس.

– يا مكارم ليش ما بتحبيه؟.

– ليش ابوك بينحب؟ بنتي لو ما هبلة كانت حبيتو؟. روح اندفس نام من خلقتي. ما بتعرف تحكي شي مهم ابدا.

تعلمت أن أتماسك عندما تثور مكارم كي لا أضربها وهي جدتي التي أشك أني ابن ابنتها. رغم أن لها الفضل الذي لا أنساه أنها سمحت لي بالبقاء في بيتها لأكبر، رغم قساوة طباعها وتشنج أعصابها الدائم. رغم ذلك أحاطت بي وفرملتني كي لا أهجرها ، مع ذلك لم أصبح كما كانت تحلم بي كتاجر فحم كبير او خبير مشاحر الفحم في قرية السن التي تمتلىء بالحطب وبالمشاحر بعد كل تقطيع وتشحيل في جرود القرى المجاورة. ربما لم تحلم بي أبدا كيف سأكون في الحياة . غاية وجودها العمل الأكل والنوم وجرتها التي تلفها بقطعة من قماش وتضعها

داخل الجدار الحجري خلف رأسها والباقي لا تفكر به . ستسألني لو كنت قربي ما الباقي حقيقة، لا أعلم. فالجميع هنا في روتين قاتل كان يدفعني هذا أحيانا لأشق اصبعي قليلا لأشرب من دمائي وأشعر اني حي.

أمي تركها أبي وحيدة من دون رجل يرعاها الى أن ماتت وهي تلدني كما تقول مكارم " عطسك ابوك وترك بنتي تموت لتجيبك على هالدني يا منحوس" . لكن بالنسبة لها ولدت مع الجن، زوهري نحس لأن لساني احتاج لقطع كي استطيع الكلام . لكن اتساءل اليوم هل اول كلمة قلتها ماما او بابا ربما قلت ددتي، يا لهذا القدر الذي تركني معها كعقاب لا أعرف سببه. هذه العجوز لا تحكي ابداً كيف ربتني أو حتى كيف كبرت، فما اتذكره هو أنها لا تنتهي من اعطاء الأوامر او ساكتة لم تخف يوما، رغم أن البيت بعيد قليلا عن بيوت الاخرين في قرية السن التي لم تصل اليها الطريق المعبدة ولا اعرف ان كانت قد وصلت اليها. ربما هي قرية لا وجود لها في عكار. السن ما معنى أن تسمى قرية بالسن؟.

لدى مكارم الكثير من شامات على وجهها الأسمر الخشن، فشفاهها باللون البني المائل الى السواد. وخطوط جبينها كحبال تنشر عليها الغسيل تهتز عند غضبها الشديد، فتتعرج وتنتفض كأنما سكنها ابن الجن الأكبر . أصاب برعب حقيقي وبنوبة برد شديد تفتت عظمي . رحم الله جدي فعلا لأنه رحل باكرا وتركها. رحمة الله سبقت غضبه. هذا ما كانت تقوله وتستفيض به، وكأنها تمنحني بركة رحمتها التي سمحت لي البقاء معها بعد موت ابنتها. فثيابها الفضفاضة كانت تخفي ضخامتها التي تظهر عند استحمامها. فأراها كحجارة

منجز الضخمة عند المدافن الأثرية حيث ضاجعت أول امرأة في حياتي. فكنت كطائر غط على جسد ساخن انتفض عنه خوفاً عندما شعر أنه بدأ يبرد كميت.

لم اسأل يوما عن أعمامي ولا عن خالاتي وأخوالي. فهي لم تتكلم يوما عن أقارب لها. إلا انني عرفت فيما بعد أنها جاءت الى قرية السن بصحبة زوجها هرباً من ثأر لاحق جدي؛ وأنها طمست كل ذلك منذ وجودها في قرية السن. علمت ذلك قبل أن أهرب مع البيرتينو الى تركيا. يومها كانت تعيسة جداً وكانت تشعر أنها ستموت بسببي وأنا المذنب؛ لأني تماديت مع نبيلة في مدفن الملوك بحجارته السوداء حيث كنا نمضي أجمل اللحظات. بين نقوش الالهة لملك يحمل بيده اليسرى عصا كبيرة وكأنه يريد أن يضربني بها على مؤخرتي التي تشتاق دائما للخدر اللذيذ الذي يجعل مني ثورا في حلبة مع أنابيلا.

أكتشفت رجولتي بعد أن فقدت بكارتي الذكورية مع نبيلة. فقد أصبت بخوف شديد وبنوبة برد شديد ونحن في شهر آب الحار جدا على الحجارة في بيت جعلوك حيث كنا نستلقي ومن ثم تمسك بيدي وتضعها بين فخذيها فيجن جنوني عندما اشعر بلزوجة اصابعي وهي تتزحلق بين تعرجات ادمنت طعمها فيما بعد. فهي لم تهتم بعد أن طعنتها أول مرة بخنجر اللذة وهي تتململ وتردد ادبحني. كنت أشعر بوجودي وهي تلمسني برقة ، كأنها تتفقد كل شبر في جسدي بعد أن اسحب خنجري حاراً من بين فخذيها. فتأوهات نبيلة وليونتها بين يدي كانت كالذي يصاب بخيبة أمل من أكل بارد تمنى تناوله حارا. فأصبح كالذي يحمل فأساً لتقطيع الحطب لكن سرعان ما يصاب بالتعب. وهي تستسلم سريعا لقبلاتي

مرة أخرى وتتمدد على جسدي كقطعة الحلقوم على البسكوت . بعد أشهر أخبرت مكارم أني اريد الزواج من نبيلة شيطانة الملوك في منجز. فجن جنونها وثارت كالثور الاسباني في الحلبة لا ينقصها الا أن تنفث الدخان من أنفها، كأنها رأت عفريتا حقيقيا أو مصارعا يمسك القماشة التي يغيظ بها الثور..

– يا ابن المغضوبة كيف تعرفت عليها ووين؟ شيطانة تحت الأرض هيدي؟.

– يا مكارم، نبيلة حسين جواد من البيرة بيتها قرب نبع جعلوك.

– بنت الشياطين فتحتها متل ما فتح ابوك بنتي؟.

–شو فتحتها يعني يا مكارم ؟ اريد الزواج منها.

– ليش انت قادر تشتري حبة حلقوم لتتزوج يا ابن الحمار

– منخدمك نحن يا مكارم هي بتنظف وانا بعمل مشحرة وببيع فحم.

– اذا بشوفك ببيتي بعد اليوم ، برمي عليك مازوت وبشعلك لتصير رماد.

يومها تركتها وأنا لا أعرف الى أين سأذهب ولم أعد الى تلك القرية الواقعة في قعر جبل، كأنها في كف الطبيعة البكر التي تأبى أن يراها أحد. ولست متأسفا أبداً لأني لم أشعر يوما وأنا أسكنها أني في الدنيا، بل كأننا قوم يأجوج ومأجوج وحين نتكاثر سنغزو هذا العالم المتوحش. لكني في الحقيقة كنت قد قررت سرقة حجر معبد نبع جعلوك ولم أفكر بما تبقى الا بالرحيل عن مكارم مهما كان ثمن ذلك.

الفرق بين القنافذ والأفاعي..ان الأفعى سامة ولكن ناعمة وجميلة، والقنفذ كائن شوكي إنعزالي حقير، وأنا لا أحب العزلة تخيفني ، فأزمة الانسان وعيه. والوعي جرح حي وأنا أزمتي الحقيقية هي جهلي بعلم الاتجهات، ووعيي أنني اعشق مجنونة قادتني الى هاوية أخاف الوقوع من حافتها . فالأماكن الموحشة داخل القلب لا على الخرائط التي لم افهمها يوما. إذ أكاد أجن من كاوتيكو وقرارها بالبقاء في صقلية ومن الواقع الذي نشأت فيه مع مكارم داخل مغارة عكارية اسمها بيت جدتي، وأحتج على الله لم لا يسارع فينهي هذا الفصل البارد الذي دخلت فيه بتجارة مع البيرتينو ولا أعرف متى ستنتهي.

الفصل الثالث

انتظرني البيرتينو بالرغم من أنني تأخرت ساعة كاملة. فهو دقيق المواعيد، وأعلم أنه شديد الغيظ لو تأخر أحدهم على موعد. اشعر أنه كالحشرة أسعد المخلوقات على وجه الأرض همها الوحيد قضم ورقة خضراء ليس إلا. وهو همه الحصول على الفحم النشط فقط، وكأنه لبناني لا يطيق العيش من دون اسنان بيضاء أو ازالة السموم بالفحم النشط. سبق أن تكلمت معه على الخليوي ليترك الضوء مشتعلا في كوخ يجمعنا عند أطراف قرية شامواه حيث الضوء يصبح كالمعبر الضوئي الذي يجذبني نحو زريبة دون ستيفانو القديمة ورائحتها التي تشبه زريبة حماري ناريش. أو قبو ناريش الحجري بالاصح.

نظرت إليه وهو يراقب الطريق الممتد ما بين الطريق الترابي وكوخه، ورأسه يميل شمالا ويمينا، وقد أصابني الأضطراب من احساس يقيني أنه متوتر على غير عادته. راودني هذا الشعور وهو يصافحني بيد باردة، وفي اليد الأخرى سيكارا كوبياً برائحة تميل الى رائحة تبغ مكارم المولعة بمضغ زهر التبغ الأخضر، ومن ثم اليابس منه الذي تحتفظ به في صندوقها الخشبي، وكأنها في كل مواسم التبغ العكارية في قرية السن تنتظر نكهة مختلفة أدمنتها. وكنت أتحاشى سؤالها لماذا تمضغ كل شيء يقع أمامها من فحم أو تبغ أو حتى زهرة عطرية، وحتى الجراد ان رأته فمصيره فمها، أو حية تقطع رأسها وتأكل ما تبقى. والحية الصغيرة تؤكل بعد ان تقطع رأسها بقبضتيها.

جلسنا الى طاولة في غرفة صغيرة من الكوخ، وعيناي متعبتان من ضوء خفيف معلق في سقف يكاد يلامس رأسي. فقال البيرتينو هذا آخر لقاء لنا هنا الطلبية الأخرى ستكون لوحات فنية لانابيلا نستلمها منك في اليونان وستصل إلى هناك بمساعدة أنابيلا. اسمع كلامها فقط وتابع تعليماتها بحذافيرها ولا تعترض. فالكمية التي ستسلمها هناك لكاترينا وهذه المرة لا شأن لك بكاترينا. وكاترينا امرأة قصيرة القامة من أصول تركية جافة الطبع رغم جمالها الملائكي كفراشة صباحية، إنها شرسة وحادة الطباع فقد التقيتها في معرض روما للفن قبل أن يقتحمنا فايروس الكورونا ويجعلنا في قارورات زجاجية لا يمكن مغادرتها الا افتراضياً.

صرخت في وجهه وقلت :

– كيف لا أعترض هذه المجنونة وأنا لا أدري متى تصاب بنوبة هيجان تقتلني بها ؟ فضحك البيرتينو بعد أن استدار وقال بابتسامة ساخرة:

– حافظ على رباطة جأشك يا فشكول ولا تثرها فتغضب وتقتلك يوما ما.

فأغضبني أكثر، فاسم فشكول يصيبني بنوبة جنونية قوية احتاج بعدها لسيكار كوبي ولفنجان من الشاي المعتق البارد.مع بعض القطرات من دمي.

نظر إلي نظرة سيد لعبد عليه أن يفهم ماذا يريد قبل أن يأمره. ناولته علب الفحم المغلفة وأنا أنظر اليه ، ففرك حلمة أذنه ومن ثم أنفه حدّق بي لثواني وقال

انا مغادر الى لبنان اشتاق لعمتي برناديت. ربما لن تراني مرة أخرى. لكن مؤكد أراك عبر الواتساب.

– ألم نتفق أن نبقى معا هنا في ايطاليا أو في اي بلد آخر ؟.

– أنت مجنون أهبل كما تقول عنك مكارم ، هل نسيتها يا مخبول.

– لا تقل عني مخبول يا من تخاف من معاشرة النساء.

– لا أخاف من النساء ولست الأهبل الذي يتلقى الصفعات منهن.

– هل نسيت وعدك بأن نبقى معا هنا.

– سأعود الى بلدتي، عمتي بحاجتي والكورونا هنا تجتاح البشر.

شعرت بقبضة يده كالكرة الحديدية على وجهي فتناثرت الدماء من فمي ووقعت على الأرض. التقطت قضيبا حديديا وضربته به. فوقع على الأرض مغشيا. لا أعرف كيف حدث هذا بسرعة. كنا دائما نتشاجر ونتقاتل الى ان نتعب. حاولت ان اوقظه لكن الدماء ملأت الأرض وتراخت يداه التي حاولت مسكهما وهزه منها. تركته في كوخ دون ستيفانو كما هو وتوجهت الى دراجته منطلقا والحصى تتطاير، كأني في مشهد من أفلام الأنيمي المولع بها التي استفحلت في دمي مع "ون بيس" الذي أشعر أنه عالمي الحقيقي الذي انتمي له حاليا. والخليوي مثل الكهف الذي آوي اليه عند الاحساس بالوحدة. فيما مضى حاولت استكشاف الهدوء في القرى، لكن ألم الوحدة الناتج عن عدم التواصل الانساني يجعل من الانسان

قطعة حجرية لا يمكن نحتها ولا حتى التخلص منها في ظل الانتهاكات الكثيرة لحقوق الإنسان في الدنيا برمتها. رغم أن الألم يجعلني أشعر أني في الحياة الضيقة التي تعصرني كحبة زيتون في معصرة من حجارة قديمة.

كان المكان قد بدأ يكتسي بالظلام. فما استطعت مغادرة شامواه التي دخلتها ذات مرة بعد رحلة طويلة أمضيتها مع شتول الأشجار ايضا مدة ثمانية أيام، وربما أكثر وأنا مغطى بشتول ذي روائح عطرة أقله لم أصب بزكام رائحة النكّوب والتحسس الطبيعي من حاكورة مكارم وسمادها النكّوبي وهو براز الماعز والغنم والدجاج الناشف، تضاف إليه" جنزارة" ممزوجة بنخالة القمح التي توضع مع البذور والشتول عند زراعتها لإبعاد الحشرات والديدان لمكافحة الجراثيم والفطريات، وغالباً ما كانت العجوز السوداء تدفن قطع الفحم في التربة قرب اي نبتة تحبها لتكبر بخير من دون اي آفة تصيبها. حاسة الشم لدي تفتقد لتلك الرائحة الآن ربما الكورونا سرق مني أهم حاسة لدي.

يبدو أنني افتقد رائحة تربة مكارم النقية. وأنا مدفون تحت الشتول منذ ايام بلا أكل ولا ماء متجمد متيبس كغصن شجرة مقطوع بلا جذور. شعرت بما يكفي من الموت وعزرائيل قربي براقبني وينتظر أن أعلن استسلامي ، لكن البيرتينو انتشلني كالرجل الآلي ورمى بي في بركة من الماء أمضيت فيها ساعات أغتسل من البول والبراز العالق بي كميت من اسابيع مرمي على تربة طينية.

تحاشيت ذكرياتي مع البيرتينو قدر المستطاع بعد أن شعرت بفقدانه تماما. إلا أني انحرفت عن الطريق قبل مغادرتي قرية شامواه لأن الدراجة التي أخذتها من البيرتينو لم تكمل بي السفر من دون أن ينفجر الدولاب الأمامي الذي ألزمني الوقوف جانب الطريق، لأشعر أن غضب أنابيلا سيزداد في ليلة متعبة كهذه. حاولت تغيير الدولاب بسرعة قدر المستطاع لأصل اقرب مطار فجراً. لكنني شعرت بتوتر شديد، ففكرت وأنا أقود منهكاً من تعب ذكريات بلحظة وصولي الى مطار حتى الساعة وأنا عبر طريق جبلي حرجي شبيه بطريق كنت أسلكه للوصول الى جبل أكروم لاستلم النقود الأثرية من نظمية تلك المرأة التي كانت تخفي معظم الوقت فمها، فتعض على طرف كوفيتها السوداء وتخفي ملامح وجهها حتى صوتها يصبح خنفسيا، وكأنه يخرج من أنفها وفمها مغلق.

مبهمة هي الذكريات التي أتسلقها من حين الى حين لكنها قوية بما يكفي لتجعلني أشعر أني لم أكن غبيا فأموت، وكأني ما أتيت الى هذه الدنيا أبداً. لست ذكيا بما يكفي كما كنت أظن نفسي ما قبل الخمسين، لكني بعد ذلك أحسست أني الفشكول فعلا، إذ لم ارتب أولوياتي ولم أخطط لما بعد الخمسين. ولم أفكر بخساراتي. احتقرت البعض ممن عرفتهم. والبعض كنت اخشاهم، والبعض ابغضهم وما غضضت بصري عن أحد كما غضضته عن مكارم التي ما احببت يوما أن أركز نظراتي عليها. كنت أصاب بالاشمئزاز أن جلسنا معا لأكثر من ساعة.

نظرتُ الى الطريق الممتد أمامي والمفتوح والممهد من دون توقف أو اهتزاز. لا أعرف لماذا نعود بالذاكرة لنشأتنا الطفولية أو الشبابية. ألا يكفي إني هنا مع كاوتيكو في جزيرة صقلية الإيطالية الزاخرة برائحة طرابلس وبحرها الذي غصت فيه مع البيرتينو ، ولا أعتقد أن في وسعي نسيانه أبداً، فهو دفعني لأعمل معه على سفينة تجارية تدخل الى مرفأ طرابلس كل شهر على مدار السنة محملة بالسيارات. هذا ليس طموحي منذ البداية لأعمل على ظهر سفينة نقل تجارية يقودها القبطان دون ستيفانو الذي يدخل مدينة طرابلس كل شهر تقريباً بباخرة مليئة بالسيارات من مختلف الماركات الايطالية. اتشعر بذلك أنت؟ لم أعرف يوما أننا في طرابلس نمتلك مرفأ ترسو فيه البواخر المحملة بسيارات ايطالية. فكنا نعمل على تفريغ محتويات باخرة السيارات وتسليمها الى تجار من زغرتا ومن الجنوب. كانت ايامي في طرابلس محدودة بتفريغ الباخرة من السيارات ريثما استطيع السفر الى قبرص ومن ثم ايطاليا. لكني وضعت الكيس المملوء بالنقود الأثرية في مقبرة الغرباء حيث بقيت أنا والبيرتينو في كوخ من تنك إلا أن غادرنا الى تركيا ومن ثم ايطاليا.

فكرت، وأنا أقود بالأغنية التي أسمعها للمره الألف وأنا مأخوذ بالعصفور الناري في أغنية تجذبني لأتحرر من الفشكول الذي قيدني مع البيرتينو رفعت صوتي بالغناء والمقود ثابت في طريق غير متعرج لا يشبه حياتي ابداً، أغنية دعوني أغني وغيتاري في يدي، دعوني أغني أنا ايطالي.. وعصفوري الكناري وهو عندي بمثابة أنابيلا وهي ترقص على أنغام هذه الأغنية بثوبها المنتوري القصير الذي

يكشف عن صدر لؤلؤي وأسنان بيضاء أمرر عليها لساني فأشعر بطعمها السكري كأنها بطعم حبات الذرة البيضاء في صحن القمحية باللبن التي كانت تطبخها نونا مكارم ، ونونا اي جدتي بالايطالية هي شخص كبير له احترامه، ولها الدور الأساس في بنية الأسرة الايطالية. ماذا لو كانت مكارم ايطالية؟. ماذا لو كانت من اصول افريقية؟. لا يهم نسيتها منذ غادرتها فهي فظيعة ورهيبة لا شيء يجعلني أتخيلها في هذه الكلمات من الأغنية. لا أعرف كيف اقتلها في ذاكرتي. نونا الحقيقية هي التي انجبت أنابيلا. صحيح أنها لا تشبه صوفيا لورين وهي ايقونة الجمال ولكن حبيبتي شرسة كلبوة لا يمكن أن تهدأ ما لم يضعها الأسد بين فخذيه.

أصابني الطريق بلوثة من ذكريات تتناقض فيها مكارم مع انابيلا التي تركض نحوي بدافع المحبة التي تؤمن بها وهي تقول لي دائما : "طريق المحبة لا يسلكه إلا من أدرك أن لعبة الحياة لا تحتاج لكل هذه الصراعات التي ما زالت تحدث فيها منذ أن وارى الغراب سوأة أخيه.. فمن مشى مع الرب انتمى للمحبة التي أصبحت نادرة في أيامنا ذات الأكاليل الشوكية التي تدمي القلوب، وتصيب الأجساد بضعف فتترنح من شدة المعاناة ". بينما مكارم كانت تركض نحوي ورائحتها العفنه العتيقة تسبقها وفي يدها كف من شجرة الصبير تنتزعه لتضربني به على مؤخرتي التي تتخدر أياما.

ربما تصيبك حكايتي بالذهول لكنها من المؤكد هي حكاية فشكولية غير مرتبة تشبه حياتي التي لم أفهم غرائبها ، الأحرى حكاية مشحرة ومعفرة، كأني ظل لناريش الذي ولد معي كتوأم يتصف بالبشاعة وبصوت شنيع ورغم ذلك سمحت له بالمشى معي على طرقات عكار شمال لبنان في قرى عديدة من دون أن يحاول مرة واحدة أن يرفسني أو أن يمتنع عن الأكل، أو حتى أن يرميني عن ظهره على قول مكارم بتشحر وبتعفر مع حمار أنا حماره. فالأمور الغريبة في الحياة تستمر دائما ما دام الزمن يجري. اذ يبدأ كل شيء منذ الولادة، فإما شقي أو تعيس أو سعيد .

لم أفهم لماذا تمت تسميتي بنورس أسم يصيبني بالدوار والخوف من اسئلة تخطر في ذهني ولا أجوبة عليها والنورس هو طير قوي بأجنحة طويلة رغم منقاره السميك والمعقوف. إلا أن أقدامه مكشوفة ، وربما لهذا كنت لا أطيق البنطلون الطويل حتى في فصل الشتاء كنت غالبا ما أرفعه الى ما تحت الركبة، فتصرخ مكارم بي أنت متل الطرطبيس يا زقزاق يا شامي يخرب بيتك لا بتكن ولا بتجن ولا بتنحاش، وكأني من عائلة الطيور أو نورس أو طرطبيس. أحب طعم الطرطبيس المشوي على فحم كنت أصطاده عندما أنزل الى بيت جعلوك لألتقي نبيلة ولا أتركها الا بعد أن تبدأ الشمس بالغروب لتأخذ أبقارها الى البيت وأحمل الدوائر المنقوشة التي كنت أجدها بين فتحات الصخور تحت الماء. كان يجب على مكارم أن تناديني ديك الماء ايضا اليس هو من الطيور؟.

قد أكون نورساً غير حائز على جناحين طويلين ، وقد أكون حماراً بظهر أعوج لا يطيق تحميل أكياس الفحم ، لكني أقولها وأنا بكامل وعيي، حفظت عن ظهر قلب أني ابن العفاريت ، ربما مكارم كانت تخاف تربية صبي لوحدها، وهذا الخوف وصمتني به حتى نسيت أنا من أكون وما هو جنسي وما هي هويتي. لا يعنيني نوريس ولا حياته هنا، ولا يعنيني نورس ولا حياته في قرية السن، ولا حتى في أي بلد من البلاد. ما يعنيني هو أنابيلا منذ أتيت الى صقلية برفقة البيرتينو الذي افتقده جدا ، وأضحيت واحداً من أقوى رجاله الذين يبحثون عن النقود الأثرية الحجرية منها والمعدنية، وبدقة أكثر وسيط شفهي متلون بألف لون ربما كنت أشعر أني آموس هوكشتاين وأنا أسلم الرسالة الشفهية لأحدهم وهو يتناول فنجان قهوته على طاولة ذهبية أو يمسك سيجاره الكوبي كالذي يمسك عصا على نقود وجدتها في بيت جعلوك العكارية، أو في وادي السبع في قرية أكروم التي كنت أقصدها من أجل جدتي ملكة العفاريت الكبرى في لبنان لأحضر لها العكوب الجبلي لتطبخ اللب بعد أن ازيل عنه الشوك في أواخر فصل الشتاء. طبق العكوب مع الأرز واللبن أشهى من البيتزا الايطالية التي تعشقها انابيلا وحتى اطيب من طبق المعكرونة بالجبن الموزاريلا المبروش الذي اصنعه لكاوتيكو كلما بقيت عندها أياما.

كأني القنفذ الذي يستيقظ أواخر الشتاء من ثبات مكارم الذي كنت أقضيه بتقطيع الحطب وتحضيره لمشحرتها الكبرى. لم أنتبه من قبل أن مكارم تشبه القنفذ فعلا بدون رقبة ظاهرة وأذنين صغيرتين وفم كبير بشفاه غليظة جدا وبأرجل

قصيرة، وكأنها كرة تتدحرج نحوي عندما تغضب وتنشط ليلا فلم أشعر يوما وأنا في مغارتها بالسكينة والهدوء إلا عندما أنام على السطح في عرزالي الصيفي .

لا أعرف كيف أزيل مكارم من رأسي أود طحنها كالفحم الذي تمصه ليل نهار أو تكسيرها كزجاج أنابيلا . أتتخيل معي مكارم متكسرة الى قطع بمختلف الأحجام ومركبة على مرآة أرى عليها وجهي كل يوم؟. ماذا لو رسمت مكارم الآن بقلم من الفحم أو ماذا لو قمت بنحتها على حجارة وكسرتها، ثم كسرتها، ثم كسرتها، وأعدت لصقها على مرآة. أتتخيل كيف ستكون هذه اللوحة؟ هو مجرد وهم أدرك ذلك لكن في حقيقة الحال هي قابعة في رأسي. مصاب أنا بمرض عضال اسمه مكارم. مقتنع بعمق أن ناريش وحده الشجاع في هذا العالم. وحدهم الحيوانات يعيشون براحة بال ولا يبغضون أحد. كنت أنتظر الثعالب في ليالي الشتاء خاصة في الليالي المقمرة لأقتل أحدهم وأسلخه وأجفف جلده بعد تمليحه لأنام عليه وأشعر بالنصر والقوة.

يخالجني النفور منها غالبا وبشكل أقوى عندما تنام على سريرها الخشبي الذي صنعته بنفسي من بقايا أخشاب لملمتها من هنا وهناك بعد كل ورشة إعمار لبيت ما حولنا. هي شبه سوداء بعد كل مشحرة كبيرة تجني منها الكثير من الفحم . لا تطمئن الا بعد تعبئة الأكياس وعدّها وتحضيرها لنقلها الى عبدالغني في قرية القصير. كان يدفع بسخاء ثمن الفحم السنديانى من دون مناقشة السعر الذي تفرضه مكارم. والغريب انه كان يفتح كل كيس فيبتسم ابتسامة عريضة كأنه رأي امرأة عارية.

كنت استمد إصراري لمتابعة الحياة بتحديات نشأت عليها مع مكارم التي عاشت كما ينبغي، أحيانا أشعر أنها كناريش لا هم لها إلا تأمين طعامها وما يكفي لتستمر في العيش. لكن الذي لم أفهمه جرتها المملوءة بالعملات الأثرية التي التقطت بعضها من جبل أكروم أثناء رحلة إحضار العكوب النبات الشوكي الذي أحبه مطبوخا على بصل مقلي ومنهنه على النار مع زيت الزيتون. فأسلك درب القطلبة مع ناريش وصولا ألى عودين وتلالها وأرضها الصالحة للتخييم. ومن ثم الشمبوق ببيوتها القليلة ومناظرها الجميلة. فأمضي ليلة فيها مع عفاريتي ومن ثم أكمل الى كرمسباط. ولا أهدأ الا بعد أن أصل الى مصنع عندقت القديم للغزل المهجور منذ سنين الذي حوله الكثير من الصخور الكبيرة. كنت أجد الكثير من العملات الأثرية في رحلتي هذه حوالي عشر قطع في كل رحلة عكوب. وبعض الحجارة المنقوش عليها رسومات صغيرة. أجمعها في كيس من جلد الثعالب تحت سريري. أهمها السوداء التي تميل الى الزرقة، وكأنها عملة عفريتية جميلة بنقوشها النافرة والغائرة منها. بامكانك التوقف عن القراءة إن شعرت بالتعب. كما يمكنك ضغط زر الحذف لهذا الملف الذي سأرسله لك عبر الواتساب.

أدركت في نهاية الأمر أنها عملة أثرية تستحق ثروة. كنت ألعب بقطعة من تلك النقود الأثرية طرة نقشة مع زبيدة خانم حين راهنت معها على أن ناريش سيرتفع نهيقه عند وصول دون ستيفانو لزيارتها. قلما يوجد بيننا خلافات، فهي طيبة حنونة تشعر بسلام وأنت جالس قربها. على وجه العموم كانت أشبه بأم

ملائكية لم أعش في أحضانها بما يكفي. وأحلق في كوكب أحلامها عندما يحضر دون ستيفانو لشرب القهوة عندها. انصت لاتفاقاتهم التجارية كانت تشتري سيارات بالجملة وتبيعها بالقطعة للمناطق بالمفرق. هذا ما كان في ظاهر الأمر أما في باطنه أكتشفت بعد ذلك أن هناك الكثير مما لم افهمه في شبابي العكاري. فقد كانت القطع الأثرية تنتقل شيطانيا من شخص الى شخص حتى جدتي مكارم الشيطانة الكبرى. هل كانت تبيع العملات الاثرية في مدينة طرابلس بعد ان تضعها في كرات من الصوف الملون؟ . أغضبتها مرة وأنا اخفي قطعة في قبضة يدي ولم تستطع اخراجها رغم ضربها الشديد لي.

– يا شيطان اذا معك قطعة من النقود الاثرية يجب أن ابيعها عندما انزل لطرابلس لشراء صوبيا جديدة.

عندها فتحت يدي ولكن قلت :

" صوبيا كبيرة لتحميص الخبز"

ضربتني اكثر تلك الشمطاء بعد ان فتحت قبضة يدي ولم أنس ذلك اليوم، إذ بدأت بلف الخيطان حولها لتصبح داخل كرة صوفية بيضاء. لكنها طلبت مني تسليمها الى زبيدة خانم وكانت صدمتي كبيرة. كيف لمكارم ان تعرف زبيدة خانم؟

أدرك الآن أننا نجلس على ثروات قابعة في أرض سكنها العفاريت. كنت أميز الصخرة التي سأجد تحتها قطعة النقود، لأنها كانت كثيرة التعرجات ومن بعض ايحاءات الرسوم عليها أشعر أنها ليست من قوانين الطبيعة، بل هي من أيدي

العفاريت القدماء. وكأن قطعة النقود تناديني لأنتشلها. لماذا أحدثك عن هذا لا أدري لكن احدى الحقائق التي نتجاهلها في عكار هي قيمة الأثار المخبأة في جبالها وكهوفها وحتى انهارها. وينابيعها فنبع بيت جعلوك يحثك على الشرب منه أو أن تتأمله كنبع مقدس منسي منذ آلاف السنين. رغم أنني أشعر أن عمره من عمري إلا أنه ملتصق بالارض العكارية رغم جريانه وأنا كقطعة آثار انتشلتها وانتقلت من يد الى يد الى أن أصبحت في متحف من متاحف العالم؛ لكنني سأتعفن في قبر أو تأكلني الأسماك في البحر أو سأحترق في غابة ما. لكن أن اموت كبغل على فراشي هذا من المستحيل. الا يكفي أني قتلت ألبير عن غير قصد. لم أشعر بنفسي عندما ضربته بالقضيب الحديدي. لعنة الله على من رمى القضيب الحديدي هناك، ساعة ابليس على قول مكارم.

أيامنا هذه أضافت لجروحي جرحا لا يُشفى، نستطيع الوصول فيها الى آخر الكون من خليوي نشط مشحون بالأنترنت. الآن حقيقة كل شيء من حولي عفريتي بامتياز. لأن البيرتينو كان يعرف أين أنا، من الخليوي الذي بين يدي ويستطيع تهكير الواتساب ويعرف من أحادث حتى إن أمضيت ليلة افتراضية مجنونة مع كاترينا المهووسة بالسكاكر عاشقة المص الكبرى لا يمكن أن تلتقيها دون قطعة سكاكر في فمها. مليكتي كاترينا ذات العينين الخضراوين، والأصابع البيضاء الطويلة، والصدر الذي يتنهد كثيراً، وتضحك كثيراً عند خفوت شهوتها؛ وكأنها تسبح في حليب لزج يجعلها أكثر بياضا بعد تنهدات تقتلني. لكني لا استطيع البقاء معها أكثر من سويعات قليلة. لا اتحمل شراستها فهي لا تشبع من

المضاجعة، فأشعر بالضجر. وافتراضيا اغلق صفحة المحادثة بعد أن تنهي جولتها معي. أدرك حينها أنها ستبدأ بجولة مع البيرتينو الذي لم يضاجع امرأة في حياته إلا افتراضيا.

ربما البيرتينو ضاجعها معي افتراضيا فعلا؛ واستلذ بجنونها أكثر من جنونها فهو ملك التهكير للواتساب. رغم أنها كالعادة السرية ترى ما تتخيله بوضوح اكثر. كانت تمارسها مكارم ليلا، ولم أكن واعيا لذلك حينها. لكن تغيرت الأساليب والمواقف نفسها تؤدي الى الدروب ذاتها. العادة السرية تعويض جاف عن نقص جنسي يجن الجسد منه فيثور وينتفض ويسعى نحوها ومن ثم أسترخي، فأنام بعمق أنسى فيه مكارم وكهفها. كانت تضربني بشدة إن رأتني أداعبة وأنا صغير أعتز به. فهو متعتي الوحيدة في هذه الحياة. لكن البيرتينو يشمئز من معاشرة النساء رغم حبه لهن. لكنه افتراضيا متعدد العلاقات معهن ولا يلتقيهن في الواقع ابداً .

الأشخاص الوحيدون الذين يملكون

الذهب هم الأغنياء في هذا العالم

لم أكن حائزاً على تعليم يسمح لي أن أكون صاحب رأي ، وهذا ما كان يقوله لي فيليب ابن دون ستيفانو الذي عرفته بعد أن تركت مكارم من دون ندم أشكو منه. قالها بفظاظة ومن دون خجل عندما قلت له أن لوحته تشبه عروق نبتة فريز هزيلة، أو كأنها عرائش العنب في فصل الخريف مجرد عروق تمتد من

دون أوراق خربشة دجاجة؛ لكني طمرتها في نفسي كي لا يغضب، أو يسخر مني كعادته. يخادع نفسه ويستهزىء بي، لكن بقائي معه تفاهة جديدة كان لا بد منها فالبقاء مع مكارم تلك الخرقاء السمينة ليس كافيا لاستمر في الحياة .

بدقة أكثر معرفتي بدون ستيفانو بدأت عندما كنت في القبيات أبيع اكياس الفحم للدكاكين فوقعت من جيبي القطعة الأثرية التي وجدتها في جبال أكروم. اقترب مني محاولا التقاطها ، ففاحت رائحة من فمه تشبه التفاح المعفن. أذكر أنني كنت متسخاً جداً لأني لم أكن قد استحممت، أكثر من عشرين يوما. فوضع انفه بين أصبعية صارخا بي

– ابتعد يا ولد.

– لا تقل عني ولد.

– رائحتك، كرائحة فطيس الدجاج ، يخرب بيتك.

التقطت قطعة النقود مركزاً على صاحب الدكان كي يعطيني نقودي لأرحل. لكنه لحق بي وسألني عن قطعة النقود فأخبرته أني وجدتها في جبال أكروم بينما كنت أحضر العكوب.

عرض علي شراءها بعشرين ليرة، نظرت اليه مدهوشا من قوله هذا بينما هذه القطعة الصدئة كنت التقطها وابحث عن غيرها من أجل رسوماتهم. لم أعرف ما الذي شدني لذلك. أعطيته قطعة النقود وأخذت العشرين ليرة. لكن تلعثمت عندما سألني

– هل معك قطعة غيرها ؟.

– لا هي القطعة الوحيدة التي وجدتها في بيت جعلوك.

–وماذا يوجد في بيت جعلوك

– يوجد الكثير من الحجارة المنقوش عليها رسومات. يومها قفز البيرتينو عن الكرسي مرتعباً محاولا أن ابتعد عن دون ستيفانو كي لا أعرف انه يبيعه العملات الاثرية باضعاف ما يعطيني. ومن بعدها توطدت علاقتي مع دون استيفانو ورافقته الى بيت جعلوك مشيا في رحلة صيد كما أحب. وطلب مني سرقة حجر التاج كما سماه. كانت رحلة صيد صامتة لم نتكلم طيلة الطريق. لكن قال لي :"

– سأعطيكما خمسة الاف ليرة لك ولالبير . والبير موافق وانت موافق كما اظن.

لم استطع الكلام هززت راسي بالموافقة. وعدت في اليوم الثاني الى بيت جعلوك. وقمت بتحضير كل شيء لنقله مع البيرتينو كي يتم تسليمه لدون ستيفانو. وأنهي مهزلتي مع مكارم واتزوج نبيلة في أي خم اشتريه.

نقلت الحجر المنقوش عليه الدولاب الى الأعلى قليلا كي يتسنى لي رفعه بسرعه الى الشاحنه، واضطررت الى البقاء في مقام بيت الرب في قرية الباردة او كما يقولون منجز ولا اعلم السبب في قرية الباردة القليلة البيوت جداً. فمقام الرب حجارة مضت على ولادتها أثريا قليلا جدا ربما ولدت معي ورأت النور قبل التسعينات أو الأحرى قبل مجيء الحريري الى الحكومة. كنت حينها ما زلت ألهو في القرى ابيع الفحم واستبدل العملات الأثرية مع البعض من ابناء القرى

الذين التقيهم اثناء تنقلاتي. كنت ألاعبهم طرة نقشة وأراهنهم على الهريسة وهي حلويات ذات طعم خرافي من السميد والسكر، خاصة بالخبز الساخن.

سألتني أم نجاح عندما ناولتني رغيفا ساخنا ويديها كما حاجبيها مغمستين بالطحين الذي يتطاير .

– هل أدهنه لك سمناً ؟.

قلت لها..

– الخبز الساخن لا يؤكل الا مع هريسة أحمد الحجة، وهو الدكان الموجود على الطريق العام في قرية البيرة .

احتفظت بالرغيف في سرج اجلس عليه عندما امتطي ناريش حماري الذي لا احتاج الى كبح دواليبه. كل ما يحتاجه بعد مشواري الطويل على ظهره من قريه السن الى مقام بيت الرب في منجز هو سطل من الماء والقليل من الحشيش.

عبقت رائحة الأحجار الأثرية في أنفي بعد هطول الأمطار يومها وأنا أراقب الناطور متى يغادر مقام الرب لأسرق الحجر لاحقاً. أطلق ناريش شهيقا كاد أن يفضحني ابن الحمارة. تركته قرب مقام السائح في قبل دنكة في القصير بعيدا قليلا لأني قررت البقاء أياما هنا قبل تحميله. كنت على وشك النوم ورأسي على حجر من الحجارة الصغيرة هناك بين الأعشاب. رأيت سابقا الناطور هذا وهو يخبىء بعض الحجارة على عمق متر او متر ونصف تقريباً. ونجحت أكثر من مرة في رصد أيام عطلته رغم أنه كان يباغتني أحيانا بحضور، ساعات أسمعه

يقرأ القرآن فيها هنا بين حجارة مقام بيت الرب حيث ضاجعت أول مرة، نبيلة تلك النعجة التي لا تُنسى التي هي كالحجارة لا تلين رغم بياض جسدها الخرافي وابتسامتها وهي ممدة على قبر من قبور هذا المكان الساكن سكون بحيرة الكواشرة في فصل الربيع .

كان من المفترض أن نتزوج أنا ونبيلة بعد سرقة الحجر وحصولي على المال لنعيش معا في بيت نشتريه قريبا من حارة ابو نجم . لا يمكنني الخوض في تفاصيل علاقتي بنبيلة ولا التفكير بها بعد كل هذه السنين التي مرت منذ حاولت سرقة حجر الدولاب في مقام بيت الرب. حيث أقف الان بعد أكثر من خمس وعشرين سنة وعلى ما يبدو ما زال مقام الرب بحجارته المتناثرة هنا وهناك مذ ذاك. الفرق الوحيد أني الآن نوريس مع سيارته الدوتج ولست نورس على ظهر حماره ناريش.

يومها لم يستطع ألبيرتو اللحاق بي لنلتقي على مفرق قرية الكويخات. ليتجه كل منا في اتجاه مختلف أنا إلى الشيخ زناد لأبقى في بيت الفحم عند سليمان، وهو يأخذ الحجر الأثري دولاب الملك الى قرية بيت يونس، ويبقى هناك مع الحجر الى أن يأتي الينا دون ستيفانو. إلا أنني فوجئت بسيارة بيضاء تلاحقني بداية ظننت أني أتوهم . لكن بعد ذلك حاولت الفرار عند البحيرة. إلا أنه أستطاع أن يرصدني وبدأ باطلاق النيران على الشاحنة. لم أصدق حقا ما جرى. حجر الدولاب هذا ثمنه لا يضاهى، وسيعطيني دون ستيفانو خمسة الاف ليرة مناصفة بيني وبين ألبيرتينو . تلك المهمة لنقله الى قرية بيت يونس أصبحت مستحيلة

وهذا الذي خلفي بات على مقربة شديدة . يبدو لن أستطيع الفرار منه ما لم اترجل من الشاحنه وأهرب ركضا في الحقول. لكن أحتاج لمفرق طرق سريع . ساورتني الشكوك وقدمي على دعسة البنزين، وفي سرعة قصوى جعلتني اتمايل مع الشاحنة من ثقل الحجر الذي بات في صراع معي لنصل. يبدو أن دولاب الملك هذا منحوس. لا أعرف كيف اكتشفوا سرقة الحجر ولم ألاحظ أحداً وأنا اضعه في الشاحنه قبل انطلاقي.

أخيراً بلغت مفرق طرق عند قرية عمار البيكات تركت الشاحنة الصغيرة التي استأجرتها من عياش عند خزان الماء، وركضت نحو الحقول وقد اسعفتني العتمة بقوة كي لا يعثر علي، ونباح الكلاب بدأ يتصاعد رغم النور الشحيح من ضوء القمر. إلا أنني رأيت طيف رجال لم أستطع رؤية وجوههم لمعرفتهم أكثر . لكني شممت رأئحة التبغ المألوفة واحساسي بأن لا بد من ماء بالقرب. لكن النباح أربكني أكثر فما كان مني الا الركض عشوائيا. في لحظة كهذه تصبح اللحظة بعيدة عن الزمن وما نخطط له بلحظة يسرقه القدر منا بلحظة قدرية اخرى أسرع منها . ليأخذنا الى حيث يريد.

اصطدمت بحائط حجري ينضح منه الماء. شعرت برائحة الماء قوية فرميت نفسي من دون تفكير عن ذلك السور الحجري فوقعت في الماء وانتظرت أن يهدأ كل شيء من حولي وعند اقترابهم غطست وكدت اختنق. لكني كنت اخرج رأسي قليلا قرب الحجر الذي تلمسته بيدي الباردتين.

ساعة الشؤم هذه تشبه يوم ولادتي في قرية السن في عكار لأكبر مع مكارم جدتي من دون هوية أعرف منها من ابي ومن هي ابنتها تلك التي ولدتني .

بقيت في الماء هادئاً ورأسي الى الأعلى الى أن بدأ ضوء الفجر يشقشق ونسمة البرد المصاحبة لصباح عكاري تشبه بخار الثلوج في شهر كانوني، مما جعلني أرتجف واسناني تصطك. حاولت الخروج من البركة المليئة بالطحالب الخضراء، فشعرت بثقل في قدمي وكأني حجرا ثقيل من أحجار مقام بيت الرب كما يسميه البير لكنه هنا بيت جعلوك. يبدو أن لعنة بيت الرب أصابتني بنحس شديد. تاهت خطواتي لم أعرف كيف أمشي والى أين ؟.

كان يوما من ايام شهر شباط وهو يوم آخر آخر من أيام عمري. لكنني ما زلت أحتفظ بالنقود الأثرية في صرة دفنتها قرب بيت عياش تحت شجرة الزلزلخت. فشلت في سرقة الحجر الكبير ولكن ما زلت أملك الكثير من العملات الأثرية والقطع القديمة التي استخرجتها من مغارة في قرية أكروم وأنا في رحلة العكوب . استطعت السير بهدوء بين الحقول والبساتين من دون أن اثير فضول أحد وكأني شبح لا يمكن لأحد أن يراه حتى رفعت كفي أكثر من مرة عندما يمر احد من قربي لكن لم يهتم أحد بي وكأن ما حدث لم يصل بعد الى الآذان.

أفحمتني الحياة واستخلصت مني ما يلزم لتحويلي الى رماد ان كنت لا ترى من الفحم الا سواده ، فهذا لأنك لا تعرف أهميته. كل ما تراه حينما تنظر إليه أنه يستخدم للشوي فقط. بينما هو من خشب الزيتون أو اللوز أو السنديان وغيره. لكني بارع في المشاحر، هذا ما تعلمته من جدتي مكارم وأتقن صنعه . وعندما أنظر بتمعن اليوم الى الفحم أرى فيه كاوتيكو التي تتأجج كجمرة نار هي في الأساس قطعة من فحم مرت بمراحل كثيرة قبل أن تصبح قطعة فحم . أحرقتني الحياة وأشعلتني القطع المعدنية الأثرية. وأذهلني المشترون والبائعون والمستهلكون للفحم وللقطع الأثرية. تختلف الأشياء التي نتعلق بها. لكن لكل منها وظيفته الخاصة في الحياة. فما هي وظيفتي في هذه الدنيا التي جئت اليها ووجه مكارم أمامي وسأغادرها هنا في هذا المكان الذي تعجز كل الأموال التي حصدتها في حياة أن تجعلني اعلم من هي أمي ومن هو أبي، ولماذا لم اعرفهما في الحياة؟.

جزء خفي من حياتي رافقني كالحظ الذي تؤمن به كاوتيكو. لم اؤمن بالحظوظ ولا بالحب رغم أنني تعلقت بأنابيلا وزاد شغفي بكاوتيكو عندما أهتمت بي وأنا مصاب بالكورونا ، وذلك زاد من خوفي لأني ربما أموت وأنا حتى لم امنحها ما ينبغي لحسن تعاملها معي لو كانت تعلم أني تركت البيرتينو في كوخ دون ستيفانو ميتا لشعرت بالرعب مني . فهل تؤمن بالصداقة؟هل تؤمن بالتوأمة؟. هل تؤمن بالحب؟.

حاولت أن أهدأ والعرق يتصبب من جسدي كله. حتى ثيابي المبللة بالماء تشير إلى أنني ما زلت في حالة يرثى لها . لكن لا اشعر بالسخونة ابدا. لا أعرف لماذا ما زلت انتظر انابيلا رغم معرفتي أنها لفظت أنفاسها الأخيرة في غرفة الإنعاش . فالكورونا لم يترك أحدا في ايطاليا بخير وكأنه جاء ليحصد أمني واستقراري في هذا البلد.

هكذا كنت أشعر. كل شيء يجف ويتيبس في الحياة حتى مهبل النساء اللواتي عرفتهن وشغفن بي. كل شيء يشبه الفحم في حياتي. يبدأ بالنضارة والجمال وينتهي بالأفول والتيبس. الا مكارم تلك العجوز المتيبسة ما عرفتها الا عجوزا، وأتمنى معرفة ماذا حل بها بعد أن غادرتها؟. لكن اسمع أن مكارم تمتلك جرة مليئة بالعملات الأثرية وهي خلف الحجر الرمادي الطويل أمام بيتها. وايضا بعض الحجارة المنقوش عليها تعويذات كانت تؤمن بها فتضعها في قطعة قماش وتعلقها في سقف الغرفة وبألوان متعددة . ربما لن تجد اثراً لها فهي لا أقرباء لها أبدا كما كنت اعلم. عشت في بيتها عشرين سنة الا قليلا. لا أذكر كم؛ لاني اساسا لا اعرف متى ولدت ولا أي ساعة ولا حتى اي يوم أو اي شهر أو سنة . كانت تخمينات بسيطة من رجل فشكول أخرق أهبل مشحّر. الآن عرفت معنى مشحّر ومعفّر واضف مفشكل.

حالما تصبح فقيراً ينفض عنك أقرب الناس إليك حتى المرأة التي تصاحبها وتدعي بعدها أنها لم تعش سعيدة معك أبداً . فالواقع هو خضوعك لظرف لم

تصنعه أنت. ناضلت من أجل انابيلا ومن أجل كاوتيكو التي أخلصت لي رغم كل شيء. الا انني لم استطع أن أتزوجها كما احبت. هل اقول لك سراً ما زالت مكارم هي المرأة التي أشعلت مشحرة في حياتي. أحب أن اعود اليها ولكن بشكل مختلف. اتمنى لو انها حضنتني يوما ما او قبلتني. أو منحتني أمومة. كنت غاضبا من البيرتينو لأنه قرر العودة الى لبنان او لعمته برناديت.

في غرفتي الآن كل شيء له طعم بيت مكارم، الشباك الصغير الذي يطل على جبل تكلله الثلوج، ورائحة خشب الصنوبر الذي كانت تشعله كاوتيكو في الموقد وابريق الشاي الذي يتبخر منه الماء، والأهم من هذا كله تلك اللؤلؤة السوداء كاوتيكو بجسدها الذي اشتاق الى لثم كل خلية فيه. لا أحب الموت وأكرهه . لا أحب الاطفال، ولا اؤمن بهم. لا أعرف لماذا ينجبون الأولاد، الا ترى إن الانسان هو كائن أحمق؟ لماذا انجبتني أمي وتركتني لجدتني ورحلت؟. أليس هذا ظلما يجب أن يعاقب عليه القانون؟ لماذا يلاحقنا على اتفه الأسباب؟ أتظن أن عملة أثرية يلاحقنا عليها أهم من انتهاك حقوق الأطفال والنساء؟ أضف أين حقوق الرجل ؟ هل يجوز في الحياة أن يعمل ويعمل ويعمل ويقدم كل ما يملك في سبيل أن يعيش مع امرأة، ومن ثم ترحل غير آسفة عليه؟

حتى الأولاد عندما تكف عن الاهتمام والتولع بهم سيدعون أنك عجوز أخرق تحتاج الى دار رعاية خاصة. اليس هذا ما فعله البيرتينو مع والده رغم أنه منحه دكانا، وعمته تحنو عليّ اكثر مما كانت تحنو عليه كاوتيكو. فقد كان يرسل

المال لعمته من اجل نفقته في دار العجزة، ليبقى والده معززا مكرما في دار عجزة بعيدا عن قريته التي ولد فيها وعن ابن انجبه ليهتم به. ساخرة داعرة الحياة .

أتؤمن بي؟ اتشعر أنك عرفت رجلا شبحيا اسمه الفشكول؟ رغم أن اسمي نورس الا انني أحب اسم الفشكول أكثر أشعر أنه أكثر جمالا من نورس او نوريس لا فرق. اعرف أنك تنصت لي ولا تقرأ ما كتبته لك. فصوتي في كلماتي ماذا سيحصل عندما اموت حينما افقد حيويتي او حياتي وأنا هنا في هذا المستشفى التي عرفتك فيه؟

ماذا سيحصل لو أعدت جسدي الى السن في عكار؟ هل سيتذكرونني؟ هل سيحرقوني كقطعة فحم تم انتشالها من مشحرة صنعتها بيدي؟. ما زلت أملك شيئا اريد منك أن تعيده الى مكانه، لتلك البقعة التي ضاجعت فيها نبيلة مقام بيت الرب في منجز الحجر الذي سرقته وهو دولاب الملك في حفرة قرب مقام السايح. الأحرى أن وقفت أمامه سترى شجرة صبير كبيرة على يمينها تماما تجدها. لا اظن ان احدأ قد وجده؛ لأن عكار تتركها ألف سنة وتجدها كما هي مدرك ذلك تماما. سرقت دولاب الملك الذي بقي في الشاحنة قبل أن اغادرها لكن في الحقيقة ان هناك الدولاب الآخر للملك وهو دولاب تلتف عليه حية فدفنته قبل، قرب السائح في منطقة دنكة قبل أنا اغادر بالشاحنة دنكة القصير.

كثيراً ما فكرت في حياتي وملابساتها الغريبة التي أوصلتني الى ايطاليا مع البيرتينو الذي عشت معه اجمل لحظات طفولتني وهو من شاركني عملاتي الأثرية . لكن سأقول لك شيئا أن ارتباطي بألبير هو ارتباطي بلبنان ، ولو كنت أكثر حبا لجزيرة صقلية. لربما تتساءل الآن لماذا احكي لك هذا ؟

مات البيرتينو الذي تركته ينزف ولم أحاول حتى نجدته، كما ماتت كاوتيكو وأنابيلا من الفيروس الذي حاصرنا في ايطاليا ، وها أنا أحتضر ربما سأنجو، لكن لا اميل الى هذا الاحتمال ابدا لأنني أعتبر حياتي من دونهم غير صالحة للعيش ابداً. ربما هذا ما فعلته بالعجوز عندما تركتها وحيدة. حيث أمضيت عدة أشهر في قرية بيت يونس على هامش الاختباء أراد دون ستيفانو من ذلك البحث عن عملات اثرية كضرورة حتمية قبل أن أغادر لبنان الى ايطاليا من غير رجعة. أوشكت على التأقلم لوجودي في قرية بيت يونس حيث اكتشفت الكثير من النقود الأثرية هناك في مغارة دخلتها بشق الأنفس، وكأني دخلت جزيرة الكنز. كانت مليئة بالنقود الاثرية وبقطع مختلفة غير أنها لم تمنع عني طمع دون ستيفانو ليأخذني الى طرابلس لأعمل بالمرفأ قبل أن يأخذني الى ايطاليا وأقمت معه في بلدة بورجو فلينو لأتعلم اللغة الايطالية ويصبح اسمي نوريس لوتشيانو .

ليست لدي أي فكرة قبل أنا أغادر لبنان أن لهذه الآثار قيمة تتخطى ما نتوقعه. وأن من يتشارك معنا فيها هم كثر وأقوى مما يخطر ببال أحد . الكورونا مزعجة وفيروسها قد يقضي عليك خلال أيام، لكن الحق يقال أن الإعتقاد بأنك ستشفى هو أكبر من خوف الموت جراء الإصابة بها. حرارة مرتفعة وكاوتيكو غادرتني

الى غير رجعة وأنا يجب أن ابقى قابعا في وكري غصبا عني. قطعت شوطا كبيراً وأنا أكتب لك حكايتي بحق الله اليست أفكاري في رأسي تشبهني تماما؟.

وقعت ايطاليا في قبضة الكورونا كما وقع الكثير من البلدان. لكن صدقا تمنيت لو أنني كنت الآن في بيت مكارم . كانت تشتد البرودة في شهر كانون الثاني وأشعر أن أصابعي تتجمد لكني كنت سرعان ما اشعر بالدفء، وأنا اهتم بتقطيع الحطب بينما الآخرون يستخدمون المازوت للتدفئة. كنت أهيم أياما مع ناريش في الجرود باحثاً عن الفطر او العملات النقدية وحتى الشوكيات التي تشبه العكوب في طعمها . كنت أشعر بالسعادة بعد كل مشوار أقطعه وأنا جالس قرب نار متقدة في الموقد خارج البيت ورائحة الشاي المعتق تفوح في المكان. أشعر اني موجود هناك حقا في قرية السن المبعثر فيه كل شيء والفوضوي بحجارته. كنت قد وضعت الكثير من العملات الأثرية في جرة خلف الحجر الرمادي الذي كنت أجلس عليه أمام البيت.

خصني دون ستيفانو بمنزل صغير اتشاركه مع البيرتينو عندما وصلنا الى جزيرة صقلية بعد سفر طويلة في باخرته التي تنطلق من مرفأ طرابلس الى تركيا ومن ثم تكمل . لكنه بعد عودتي من تركيا غضب مني غضبا شديداً وطلب من البيرتينو أن يبقيني امام عينيه فترة طويلة، وهذا جعل من البيرتينو وصيا علي وأضعف وجودي تماما في ايطاليا . لكني تخطيت ذلك من خلال ما كنت اكتشفه من اثار في جزيرة صقلية وكأن العفريت الذي ولد معي يجعلني اشعر بوجود ممتلكات البشر الذين رحلوا منذ الاف السنين.

ساورني أكثر من مرة احساس غريب أن البير يتواصل مع عمته برناديت وهي بدورها تزور مكارم، ولكني سرعان ما نفيت هذه الاحتمالات من رأسي . وكأن كل السنين التي عشتها مع البيرتينو تحللت بلحظة لا اعرف كيف أصفها حتى الآن . وكأنني لم التق قط به عندما قرر أن يختفي من حياتي. كان من الممكن أن اكون الآن في لبنان ومتزوجاً من نبيلة في بيت جدتي مكارم ، وربما كنت أبا قاسيا قد يضرب اولاده كثيراً . لكن لم يكن من الممكن أن لا أزور البير في بلدة القبيات.

ان كشف الخبايا في الإنسان هو لغز يحتاج لسنين عديدة حتى يتم اكتشافه. هو كالآثار التي يتم سرقتها من البلدان العربية ونتأهب لتسليمها لأكثر الدول الكبرى . نادراً ما كنت أعرف بشؤون تهريب الآثار من البيرتينو لكن المتأكد منه تماما هو أن أنابيلا كانت تضع العملات الأثرية في لوحاتها وتغطيها بحطام الزجاج . وباتفاق صامت مع كاوتيكو كنت أنا الجسر الذي يعبرون عليه. لست اناقش معرفتي ذلك بصمت أنما ما اقوله لك هو قدرتهم على خلق الأحداث لئلا يكتشفهم أحد وأنا كنت كالخروف الذي يخاف من الذئب الذي لن يأتي ليأكله، لأنه وبكل بساطه في الحظيرة المغلقة . وأنا مع انابيلا وكاوتيكو كنت معهم في حظيرة مفتوحة افترض انها القلعة الحقيقية لوجود القطع الأثرية المهربة من الكثير من البلدان ليختلط الحابل بالنابل ونصبح بلا تاريخ لأمكنة ستُمحى لاحقا عن خارطة الوجود.

أنهيتها الفشكول نوريس لوتشيو

اسمحوا لي أن أقول لكم أن هذه المغامرة على وفق حكاية نوريس لوتشيو تخصني ، لأنه وبكل بساطة لم يكن ليصدق لو كان على قيد الحياة أني أنا طبيبه المعالج هو ابن نبيلة حسين حسين جواد وبهذا المقدار من القدر الذي صفعني قررت اجراء فحص DNA قبل أن تدفن جثته.

كان ليسخر من القدر لو عرف ذلك . لكن أنا عرفت ذلك ..